الجزء الخامس من المجلد الثاني

جمادى الاولى سنة ١٣٢٥ الموافق يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٧

غلو الشرقيين

عرف علماء البيان المبالغة بأنها وصف شيء بما يزيد على ما في الواقع واختلفوا في جوازها واباحتها فجعلوا منها المقبول ومنها المردود وهو الرأي الراجح وقسموا المبالغة الى اقسام ثلاثة الاول التبليغ وهو وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه في العادة والثاني الاغراق وهو وصف الشيء بالممكن في العقل دون العادة والثالث الغلو وهو الوصف الذي لا يمكن في عقل ولا عادة .

ولقد راجت سوق الغلو ولا تزال رائجة في الشرق بما سرى اليه من ضعف العقول بضعف العلوم التي تنفع في التمييز بين ما يقع وما يمتنع . والغلو موجود عند كل امة ولكنك تراه على اشده عند المشارقة فان المفهوم من تاريخ المغاربة وآدابهم بأنهم دوننا في المبالغات والسبب في ذلك والله اعلم ان فلسفة ابناء الغرب فلسفة حسية مبنية على الحس وفلسفتنا فلسفة خيالية .

الشرقي يبالغ ويفحش في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه الدنيوية والاخروية فقد بالغ في تصوير الامور الروحية حتى صار كثير من أممه يؤلهون المخلوقات ويسجدون للجمادات والنجماوات او يثبتون لما يحترمون من الآدميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول ويعتريها الذهول .

جاءت الاديان السماوية لنزع هذا الغلو من العقول فسلمت بتعاليمها العقول في بعض اصقاع الشرق حيناً من الدهر حتى عادت بالتدريج الى سابق اغراقها وافراطها في وصف

البشر ونأليههم الى حد المزال فدل ذلك على عموم الجهل وضعف العقل . الشرقي يبالغ في تصوير الصفات فاذا وصف احداً بالعفة اختلق لهُ من النعوت ما تمليه المخيلة وتساعد عليهُ محفوظاته من الفاظ اللغة واقل ما يصف به من يريد وصفه ان يثبت له من الصفات ما لا يليق بعضه الاّ باكبر دعاة الحكمة من افراد العالم .

الشرقي يبالغ اذا وصف احداً بالسخاء والشجاعة والمروءة والشيم وكل ما يرفع النفوس الى المقامات السامية . وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات امثلة اكثر من ان تحصى او يستشهد بها فاقرأها يتجلى لك كيف تضيق الاحلام بالاوهام وأنى تسطو الخرافات على المخلوقات .

نعوذ بالله من شعرائنا الجاهليين والمخضرمين والمولدين اذا انشأوا ينشئون القصائد ويشدون بالمناقب والمحامد . تأملها مليّاً وضعها على محك النقد الصحيح وانصف في تطبيق مفاصلها على الحقيقة وانظر اذا كنت لا توجب عليهم الكفارات لفرط ما غلوا في المبالغات واذا غاليت ايضاً فاحكم عليهم بالجلد مئين واسجنهم لئلا يعلموا الناس هذا الخلق المشين ويحملوا اليهم ذاك الرأي الافين والداء الدوي الدفين . وقل معي ان امة تقول « اعذب الشعر اكذبه واشعر الناس من استجيد كذبه » هي هي امة المبالغة والغلو .

ومع ان الحساب من اختراع الشرقيين وكان لهُ فيما مضى بين ظهرانيهم شأن عظيم ترى خاصتنا دع عنك عامتنا في القديم والحديث اذا عدوا وقاسوا نسوا الحساب والمساحة واذا قدروا اوغلوا في عالم الخيال وخرجوا عن طور الحس وتناسوا التدقيق فكالوك او وزنوك بالالوف وربما كانت الحقيقة في العشرات .

ترى قومنا هداهم الله اذا سألت اكثر الطبقة العالية منهم كم قوّة الدولة الفلانية اجابوك لساعتهم كذا وكذا بتحديد الارقام مع انك لو سألت كبار رجال تلك الدولة لتمهلوا في الجواب واضطروا ان يرجعوا الى حساب وربما بقيت في نفوسهم بعد ذلك من صحة ما قالوا اشياء كما مات الفراء وفي نفسه شيء من حتى .

ترى كثيرين من خاصتنا اذا سألتهم عن الثروة لا يسعك الا ان تقف شاخصاً تستعيذ بالله من غلوّ المشارقة وتجويزهم الكذب وايغالهم في الباطل وضعف استقرائهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس . قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من اصحاب الالوف وصاحب الالف من اصحاب مئات الالوف وهكذا الى ما شاء الله وشاء اتساع عقولهم .

ولقد كان بعض الظرفاء يقول: اذا ذكرت اموال صاحب الثروة في الشرق وقدر

ما تملك يمينه فاحذف صفرين من يمين الارقام فاذا قالوا لك ان فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف انه يملك مئة واذا قيل لك مئة الف فاعرف انه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض اقل تعديل لعلك تستطيع على الحقيقة وكان يقول اذا لم تصدق فاسأل العادين ممن يقدرون ثروات الافراد الى آخر درهم مما عندهم على حين انك لو سألت اصحابها عما يملكون لما عرفوا ان يقدروا لك الاّ بالتخمين والتقريب هذا اذا لم يكونوا من اهل الغلو والاغراق

اجارك الله من شرقي يتشدق بذكر عالم عرفهُ او سمع به او جد نسب اليه ولا سيما اذا كان ذاك العالم في عالم الاموات والشرقي يرى المبالغات بالاموات من اقرب القربات ولعلهُ يحيل على بعيد عن قصد لان الحكم على الاحياء القريبة يستلزم منهُ ان يأخذ المتكلم من عنان لسانه و بيانه

ساعدت الجرائد والمطابع والمدارس على تخفيف الشرقيين من المبالغات ولكنها لم تتمكن الى اليوم من نزع هذا الخلق المتأصل في السواد الاعظم و بعض الناس في الغالب مسوقون الى المبالغة بحكم العادة والبيئة . ولقد وقعت من ذلك حادثتان كانتا من اكبر الادلة على ان هذا الخلق فينا لا ينزع الاّ اذا اكثر الكتاب من التنديد فيه وعملنا كلنا على قلب اوضاع مجتمعنا وعاداته .

فالحادثة الاولى جرت في مصر إبان مسألة العتبة في السنة الماضية فقال احدى الجرائد المتحمسة ان الدولة حشدت في عريش مصر ثمانمائة الف جندي كتبت ذلك برقم غليظ ولما سئلت من الغد في معنى هذه المبالغة قالت ان المحشود من الجنود هو ثمانون الفاً وان الصفر زائد وبعد التحقيق تبين ان ما كان جمع هناك من الجند لم يتجاوز الالفين فتأمل مبالغة نقولها جريدة كبرى في مدينة كالقاهرة في مثل هذا العصر عصر الاحصاء والتقدير في قطر اتصل جنوبهُ بشماله وشرقهُ بغربه بالخطوط الحديدية والاسلاك البرقية والتلفونية بحيث لا يحتاج تحقيق هذا الغلو الا لشيء من البحث

والحادثة الثانية جرت لصاحب هذه المجلة اذكرها للقارىء على سبيل التمثيل والفكاهة فاني ما ذكرتها الا وذكرت معها غلوّ الشرقي . ذلك اني كنت منذ تسع سنين اكتب جريدة الشام فنعى الناعي ذات يوم رجلاً من وجهاء الاكراد في صالحية دمشق كان معروفاً بين اهل جيله وحيه بانهُ من المعمرين الممتعين فقال لي الناعي وكان من اكابر الفضلاء: اكتب انهُ مات عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة . فقلت لهُ : ان العدد عظيم فهل لك ان تنزله فنهرني وقال : اكتب والحق اقول ان المرحوم كان اطول عمراً مما قلت لكَ يعرف ذلك الناس حتى ان فلاناً قال لي ذلك واكده افلا يسعك ما يسع العارفين به وعندها

كتبت : ومات عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين بعد المئة . ولم يكتف الناعي بذلك بل قال ان المتوفى خلف خمسمائه نفس ذكوراً واناثاً فكتبت بعد تأبينه والغلو في ذكر عاداته وصحته طول حياته : ومما يجدر بالذكر ان لهُ من الولد وولد الولد ما يزيد عن ثلاثمائة نفس ذكوراً واناثاً .

كتبت هذا وانا بين الشك واليقين في صحته لكني كنت والحق يقال الى اليقين اقرب لان الناقل ممن اعتقد فيهم سعة العقل وصحة القياس . فاعجب الناس بما كتب وتحدثوا به وربما زاد بعضهم نقال : ان عمر المرحوم كان اكثر مما ذكر وان الجريدة اخطأت في تقدير عمره ولعل سنه لا تقل عن مئة وخمسين واولاده واحفاده اكثر من ذلك بمئين .

ولما انتشرت الصحيفة في البلاد تناقلت الخبر عنها بعض المجلات العلمية واكثر الجرائد السيارة في البلاد العثمانية وربما لم تغفل زميلاتها في مصر ايضاً عن نقل هذا النبإ الغريب فدهشت من هول ما رأيت ونبهني احد العقلاء الى هذا التسرع في الحكم على عمر الميت واولاده فلم يسعني الا ان اخذت في تحقيق الخبر فتبين ان الرجل لم يتجاوز المئة وان ابناءه وابناء ابنائه هم دون الخمسين بيقين . وان ظل بعض احباب المبالغة يقولون ان الرجل مسن جداً وقد حارب في جيش ابراهيم باشا المصري ولكن لم يسعهم ان يكثروا في عداد اولاده لان الاغراق في عددهم يكذبه العيان واما عمر والدهم فليس فيه مستند تاريخي صحيح يعول عليه ما دام الشرقي يأخذ تاريخ رجاله واكثر ساسته في الاكثر من افواه الشيوخ والعجائز . وبعد مدة ظهر لي ان المتوفى المشار اليه كان جاء الى ادارة تلك الجريدة بنفسه قبل وفاته بسنتين وكتبت تعجب منهُ ومن صحته ونشاطه وقالت ان عمره مئة وخمس وعشرون سنة . فكان ما جرى من المبالغة في تقدير عمر الرجل وعدد اولاده واحفاده اشبه بما تأتيه الجرائد الصفراء في اميركا من الغلو في تجسيم الاخبار لالفات الانظار .

واحسن تعليل للمبالغة ما ذكره ابن خلدون بقوله : وقد نجد الكافة من اهل العصر اذا افاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم او قريباً منهُ وتفاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين والنصارى او اخذوا في احصاء اموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الاغنياء والموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب فاذا استكشفت اصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت احوال اهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونهُ وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطاء ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة

ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسير في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويحسبك بها صفقة خاسرة .

المرأة في الاسلام (١)

تعدد الزوجات حالة لازمة لبعض درجات التشوء العمراني لا مناص منها فكثرة الحروب بين القبائل وما ينشأ عنها من نقص الرجال مع حفظ عدد النساء واستبداد الامراء امور كلها توجب هذه العادة التي نستقبحها في عصرنا هذا ونراها ضرراً عظيماً .

ولقد عرف تعدد الزوجات في القديم بين الامم الشرقية كافة واستعمال الملوك لها رهم مظنة الاتصال بالله تعالى حللها للرعية وحببها اليهم وقد انتشرت في الهندوس وهم مجوس الهند منذ ابتداء امرهم والظاهر انهم كانوا كالماديين والاشوريين والبابليين والفرس لا حدّ لهم في ما يمكنهم التزوج به من النساء وان براهمة « الصف الاول » الى يومنا هذا يباح لهم من تعدد الزوجات ما تشتهي نفوسهم

وانتشرت هذه العادة ايضاً في بني اسرائيل قبل ظهور موسى وهو رغبي بها من غير ان يضع حداً لها الاّ ان التلمود في الاعصر المتأخرة علق العدد على كفاءة الرجل ومع ان الربانيين وهم احبار اليهود أفتوا للناس بان لا يتزوجوا باكثر من اربع فقد خالفهم القراءون في ذلك ولم يجوزوا وضع حد ما .

ودين الفرس الاقدمين يكافيء الرجل على تعدد زوجاته وقد انحطت هذه العادة عند الفينيقيين والسوريين الاقدمين الى الخروج عن الاطوار البشريه . وبلغت عند التراسيين والليديين والبلاسجيين الذين نزلوا القارة الاوروبية وغربي آسيا مالم تبلغه عند غيرهم وكانت المرأة عند الاثينيين وهم ارقى الشعوب الخالية متاعاً يباع ويشرى ويورث ويوصى به بعد الموت . وابيح لهم من التعدد ما شاؤا .

اما رومية فان الاحوال الخاصة التي بنيت عليها ادارتها منعت تعدد الزوجات غالباً . ومهما يكن من صحة ما ورد من اغتصاب الصابنيات فان وجود هذا الخبر في الاساطير الرومانية يدل على الاسباب التي دخلت في سن الشرائع الرومانية الخاصة بالزواج . اما في الاقطار المجاورة وخصوصاً عند الاترسكانيين فان تعدد الزوجات كان من العادات الممتاز اصحابها . ومجاورة الرومانيين لغيرهم من الامم سكان ايطاليا احقاباً متوالية وحروبهم

(١) معربة عن الانكليزية من كتاب « روح الاسلام » للامير علي العالم الهندي الشهير

وانتصاراتهم قروناً عديدة مع ما ينشأ عن ذلك من عادات البذخ والترف كل ذلك كان منه اخيراً ان الارتباط الاخلاقي في الزواج اصبح شبيهاً بالالفاظ المرددة ليس الاّ

واذا كان تعدد الزوجات ممنوعاً في صريح القانون الروماني فان السيدات الرومانيات بعد الغلبة على قرطاجنة تطالت نفوسهن للانتفاع من منافع جمهورية حرة ضخمة كالجمهورية الرومانية فلم يروهن غير العاشقين واصبح الزواج حينئذٍ تسرياً مختلطاً . وتشير حرية النساء وضعف ارتباطهن بالرجال وكثرة تغيير الزوجات وافراغهن على الغير — الى انتشار تعدد الزوجات تحت اسم مستعار .

وفي غضون ذلك ابتدأت تعاليم النصرانية الاولى تنتشر على شطوط الجليل وتنير العالم الروماني كله . وتأثير الاسينيين الظاهر في تعاليم المسيح وما يضاف اليه من الاعتقاد بقرب الساعة كل ذلك حمل نبي الناصرة على الحط من قدر الزواج عموماً وان لم يمنعهُ صراحة

وهكذا بقي حالُ تعداد الزوجات حتى منعهُ يستنيانس الا ان هذا المنع القانوني لم يغير شيئاً في آداب الامة وبقي حال تعدد الزوجات كما كان عليه حتى مجته اذواق اهل القرون المتأخرة وكانت الزوجات ما عدا الزوجة الاولى تئن تحت اعباء ثقيلة لا حقوق لهن ولا ضامن بل كن عبيد اوهام ازواجهن وتصوراتهم واولادهن لا يورثون بل كانوا يدعون نغولاً ويعاملون معاملة المتشردين ولم يكن هذا النوع من الزواج محصوراً في الطبقة العالية فقط لان خدمة الدين كثيراً ما نسوا عهد الرهبانية وارتبطوا بغير واحدة من النساء سواء كان ارتباطاً مشروعاً او غير مشروع .

ومن المحققات التاريخية التي لا تقبل الشك ان تعدد الزوجات لم يستنكر الاّ في الاعصر المتأخرة . والظاهر ان القديس اغسطينس نفسه لم يرَ فيه سقوطاً في الآداب او اثماً وحرجاً بل صرح ان تعدد الزوجات لا يعد جريمة لان قوانين البلاد تبيحهُ . واننا نرى المصلحين الجرمانيين وهم في عصر متأخر كالعصر السادس عشر اباحوا الزواج مثنى وثلاث لاسباب العقر او ما اشبهه

ويقول بعض الباحثين وهم لا يرون اثماً في تعدد الزوجات ان المسيح لم يصرح بمنع هذه العادة ويذهبون الى ان الاقتصار على زوجة واحدة هو من العوائد الداخلة على النصرانية من الجرمانيين او اليونانيين والرومانيين . اما الاحتمال الثاني فهو يخالف الحقائق التاريخية مخالفة ظاهرة ولا يجدر بالذكر .

واما الاحتمال الاول وهو القول بالاصل الجرماني فانه يتوقف على شهادة ضعيفة لواحد او اثنين من الرومانيين الذين عُرِفَ كذب الناس في شهادات ينتفعون من التلاعب بها

ولو فرضنا صحة شهادة تاسيتس فبماذا نعلل تعدد الزوجات بين سراة الرومانيين في القرن التاسع عشر ؟

ومهما يكن من عوائد الرومانيين في العصر الاولى فمن الواضح ان تعدد الزوجات في اواخر ايام الجمهورية وابتداء الامبراطورية كان سنة مقررة او على الاقل لم يحسب مخالفاً للقانون . والامر الصادر بمنع نشر تعدد الزوجات يشير الى وجوده واستعماله ونجاح هذا الامر « البريتوري » في اصلاح الخلل ودفع الضرر يظهر ان طالع جواب الامبراطور هونوريس والامبراطور اركاديس في اواخر القرن الرابع وعرف سلوك قسطنطين وابنه اللذين كانت لهما زوجات متعددة . وان الامبراطور فالينتيان الثاني اذن علناً لافراد رعيته ان يتخذوا من الزوجات ما شاؤا . اما الكنيسة في تلك الاعصر فلا نرى في تاريخها ما يدل على ان الاساقفة او رؤساء الكنيسة استاءوا او اظهروا اقل اعتراض على هذا القانون بل اننا نرى ملوك رومية كانوا على العكس يتزوجون بعدة نساء وكذلك عامة الناس لم يقصروا عنهم فقلدوهم .

وهكذا بقي حال الشرائع الرومانية حتى ايام يستيانس حين تجمعت حكمة ثلاثة عشر قرناً من قرون النشوء في تدبير المعيشة فسنت تلك الشرائع الجديدة التي لم يكن للنصرانية فيها اثر يذكر واعظم مشيري يستيانس كان ملحداً وثنياً . على ان منع تعدد الزوجات في قوانين يستيانس لم ينجح في ابطالها وايقاف اميال العصر . وهذا القانون يدل على ترق في الفكر واختص تأثيره ببعض الافراد ارباب العقل واما العامة فكان عندهم حبراً على ورق

اما في مقاطعات غربي اوروبا فاختلاط البرابرة بالسكان الاصليين وامتزاج آدابهم بآدابهم حط من علاقة الرجل بالمرأة . ولا ينكر ان بعض القوانين البربرية سعى في اصلاح تعدد الزوجات الا ان المثال اقوى من الكلام فكان اعتياد الملوك هذه العادة قدوة للعامة لا يقوى عليها النظام حتى ان خدمة الدين والرهبانية الدائمة مما يستحب لهم حباً بطاعة الكنيسة قد رووا انفسهم من عادة تعدد الزوجات بحصولهم على رخصة بسيطة من المطارنة او غيرهم من رؤساء الدين

واعظم خطاء ارتكبه كتاب النصارى اعتقادهم ان النبي العربي تمتع بتعدد الزوجات او شرعه وما كان يقال قديماً من انه هو الذي احدث هذه العادة هو علامة على جهل القائلين به وقد ظهر فساده وردهُ الاعداء والاصدقاء . واما القول بان النبي انتحل هذه العادة او شرعها فلا يزال تقول به عامة النصرانية وكثير من خاصتها من اهل العلم ولكن لا رأي افسد من ذلك وان النبي لم يجد عادة تعدد الزوجات في امته فقط فقد وجدها

شائعة عند جميع الامم المجاورة حيث اتخذت بعض افبح صورها . نعم ان المملكة النصرانية سعت في دفع هذا الضرر الا انها حاولت عبثاً فتعدد الزوجات بقي على ما كان عليه من غير وازع والمرأة البائسة ما عدا الزوجة الاولى بقيت تئن انيناً

وقد كانت بلاد فارس ايام النبي منبعث الفساد ولم يكن لها قانون للزواج معترف به واذا فرضنا وجوده فانهُ كان مجهولاً منبوذاً . ولما لم يحدد الزندفستا عدد الزوجات التي يمكن التزوج بها ارخى الفرس لانفسهم عنان التمتع بزوجات متعددة شرعيات وسراري

وزواج المتعة كان مألوفاً عند الجاهليين واليهود مع عادة تعدد الزوجات فاثرت هذه التصورات الاخلاقية الدنيئة في الجزيرة العربية اسوأ تأثير .

حسنت الاصلاحات التي قام بها النبي العربي حال المرأة تحسيناً ظاهراً ورفعت مقامها لان المرأة كانت في الجاهلية وعند اليهود من اهل الجزيرة العربية على احط ما يكون فكانت الفتاة اليهودية تعامل كالخادمة حتى في بيت ابيها وكان له ان يبيعها اذا كان مقلاً من المال ولاولاده من بعده ان يتصرفوا بها كيفما شاؤا وهي لا ترث شيئاً من مال ابيها ان لم يمت ابتر لا ذكور لهُ وكانت تعدُّ المرأة عند الحضر من العرب مالاً وتحسب جزءاً صحيحاً من ثروة والدها اوزوجها والارملة تصبح بعد وفاة زوجها مما يرثه الاولاد لذلك كثيراً ما تزوج الابناء بزوجات آبائهم من بعدهم وهو زواج حرمهُ الاسلام وسماه المسلمون زواج المقت . ومما استعمل في الجزيرة العربية من العادات السيئة ايضاً عادة تعدد الازواج استعملها اهل اليمن

وبلغ من بغض الجاهليين للنساء انهم كانوا يئدون بناتهم وهي عادة فظيعة كانت منتشرة بين قريش وكندة . وقد استقبحها النبي جداً وانكرها بعبارات كالصواعق بل هي اشد وجعل لها ولعادة تقديم الاطفال للارباب اشد العقاب

اما المرأة في المملكتين الفارسية والبيزنطية فكانت منحطة جداً و بعض اهل الطيش ممن دعاهم النصارى بعد زمن « قديسين » كان ديدنهم ان يحطوا من قدر المرأة ناسين ان الشر الذي رأوه فيها انما هو صورتهم المعكوسة . وعلى هذا الحال من الانحطاط العمراني والانحلال الادبي ونداء الناس ان الشرائع القديمة وجدت بعد وزنها بميزان التجربة ناقصة ادخل النبي اصلاحاته فجعل احترام المرأة من اركان دينه ودعى اتباعه ابنته « خاتون الجنة » حباً بها واحتراماً لها وهي عندهم مثال لنوعها « وسيدتنا الزهراء » تمثل الاخلاق الفاضلة وعفة الازار في المرأة وهي اشرف كمال ادركه الانسان وقد خلفتها سلسلة من النساء طويلة كرمت هذا الجنس بفضائلها حتى قل من لم يسمع بالسيدة رابعة

وبالف من اضرابها . وقد منع النبي في شريعته عادة الزواج المشروط ربما انهُ اباح المتعة في اول الامر لكنهُ حرمها في السنة الثامنة من الهجرة (١) واعطى المرأة من الحقوق ما لم يكن لها من قبل وخرلها امتيازات سوف تُقدر قدرها كما تقدَّم الزمن فساواها بالرجل كل المساواة من حيث استعمال القوى الشرعية ووضع لتعدد الزوجات حداً اعلى وشرط العدل بينهن ومما هو حري بالنظر ان الآية القرآنية التي تبيح التزوج باربع يتبعها ما يرجع العدد الى الحد الطبيعي والآية هي « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة »

والتشديد في هذا الشرط مع النظر الى معنى كلمة العدل في التعاليم القرآنية لم يخفَ على عقلاء الامة الاسلامية وليس المقصود من العدل المساواة في المسكن والملبس وغيرها من الحاجات الاهلية بل المقصود منهُ ايضاً المساواة في المحبة والميل والتقدير ولما كان العدل التام في مسائل الشعور مما يستحيل كانت نتيجة الاباحة هي المنع وهذا لم يخفَ على بعض ائمة القرن الثالث وبعض ائمة المعتزلة في عصر المأمون فقد قالوا ان تعاليم القرآن تنتج اباحة التزوج بزوجة واحدة فقط . ومع ان اضطباد المتوكل الطائش منع نشر مبادئهم فان الاعتقاد يسري في اركان البلاد الاسلامية الراقية بان تعدد الزوجات مخالف لروح الشريعة الغراء كما ينافي تقدم العلم والتمدن .

ومما يجب النظر اليه ان تعدد الزوجات ينشأ عن احوال خاصة ففي بعض الازمنة وفي انتقال الهيئة الاجتماعية من حال الى حال يكون من الضروريات الاساسية لحفظ المرأة من الهلاك . واذا صحت الاخبار والاحصائيات فاكثر الفظائع المنتشرة في منبعث المدنية الغربية ناشئ عن الحاجة الشديدة وقد اشار ابرهك والسيدة دف غوردن الى ان تعدد الزوجات في الشرق هو في الغالب مما تؤدي اليه ضرورة الحال .

ولما تقدَّمت الافكار وتحوَّلت الاحوال ذهبت ضرورة تعدد الزوجات واصبح استعمالها اما مهجوراً مسكوتاً عنهُ او ممنوعاً صراحة . ولذلك اصبحت البلاد الاسلامية التي تغيرت فيها الاحوال الداعية الى تعدد الزوجات تعد هذه العادة ضرراً عمرانياً ومبدأ يخالف روح الاسلام على حين لابد من استعمال هذه العادة في البلاد التي لم تتغير فيها هذه الاحوال حيث لا توجد الوسائط المعاشية التي تعتمد عليها النساء في البلاد المتمدنة .

(١) لم تزل فرقة من الشيعة تبيح المتعة ولا نرى بدأ مع احترامنا للمجتهدين اهل هذا الرأي من القول بان المتعة وضعت لمناسبات الوقت او لاميال الامراء الذين نشأ هؤلاء المجتهدون في ايامهم وفي كثير من اقوالهم اثر للاميال الشخصية

ولمعترض ان يقول ان الاباحة الكلامية تترك محلاً لتتبع المشبوه والتلذذ المستكره لذلك يكون ابطال تعدد الزوجات من الاعمال الشاقة ونحن نسلم بقوة هذا الاعتراض وهو حري بالتفات انظار من يريد تخليص التعاليم الاسلامية من المذمة الملتصقة بها ويريد التقدم مع الزمن . ومما يجب ذكره ان مرونة الشرائع هي اعظم محك تعرف به قيمة تلك الشرائع ومنافعها وهي سرّ القرآن وقيمته لانه تقبله ارقى الشعوب وهو يسد عوز احطها ولا يتنامى عن ضروريات الانسان المترقي بالطبع ولا ينسى ان في الارض اقواماً وجماعات يضر بها الاقتصار على زوجة واحدة ضرراً شديداً . اما القيام بابطال تعدد الزوجات فليس من الصعوبة بالمكان الذي يتوهمه بعضهم . والمصيبة التي اصابت المسلمين وهي اصل ماهم عليه اليوم منعهم الاجتهاد وتمسكهم بالتقليد .

وليس بالبعيد يوم يرجع فيه الفقهاء الى كلام النبي في حل مسألتهم وهي هل يقلدون النبي ام يقلدون الفقهاء الذين استعملوا اسمه الكريم في اغراضهم او اغراض الامراء الذين عاشوا في اكنافهم . وقد مرت اوروبا في مثل هذه الطريق وكان الاولى بها ان تراقب نهضة الاسلام واصلاحه بالصبر والحنو لا ان تسلقه بالسنة حداد . ومتى تم التخلص من شرك الافكار القديمة يصير من السهل على متشرعي البلاد الاسلامية نسخ تعدد الزوجات الا ان سداداً كهذا لا يتأتى الا بعد ترقٍ عام في ادراك الحقائق واحاطة بروح الاسلام . وان موافقة التعاليم الاسلامية لكل درجة من درجات الترقي تدل على حكمة المعلم . وليس تعدد الزوجات بين اقوام متدنية وله من الشروط ما وضعه النبي مما يؤسف له وهو على الاقل خير من عادة تعدد الازواج وخير من حياة ليس فيها وازع ادبي . وكلما انتشر العلم وكثر التهذيب قدرت اضرار تعدد الزوجات قدرها وصار الناس اكثر علماً بوسائط منعها . ولا نقول الا ان ان مسلمي الهند استفادوا كثيراً من اختلاطهم بالبراهمة الذين يحل في مذهبهم الفجور جهاراً بل نقول ان هؤلاء المسلمين فسدت اخلاقهم وانحطت تصوراتهم التي من شأنها رفعة الانسان وتشريفه ونقاء قلبه وانتشرت طبقة الهتري Hetairai بينهم كما هي بين جيرانهم الوثنيين ومع ذلك فثمة دلائل محسوسة تحيي فينا ميت الامل بان النور الالهي الذي اضاء البلاد العربية في القرن السابع سوف يضيء قلوبهم ويخرجهم من ظلماتهم . وقد ادى المعتزلي اجتهاده الى الاقتصار على زوجة واحدة لان الشريعة تمنعه من ارتباط ثان في خلال وجود ارتباط سابق . والخلاصة ان الزواج في عرف المعتزلة هو « ان يكون ارتباطاً اختيارياً حتى آخر رمق من الحياة بين رجل واحد وامرأة واحدة وهو اليوم حد الاقتصار على زوجة واحدة » .

وقد يرى كره تعدد الزوجات وصار من المسلمات العمرانية ان لم يكن من المسلمات الاخلاقية وهو مع كثير من العوامل الخارجيه يقلل هذه العادة من بين الشعوب المسلمين حتى صار من المعتاد بينهم ان يضعوا في عقد الزواج جملة تمنع الزوج صراحة من حق التزوج بثانية ما دامت الاولى موجودة . وفي كل مئة منهم اليوم خمسة وتسعون مقتصرون على زوجة واحدة وهذا اما لاقتناعهم بفائدة ذلك او لاضطرارهم اليه . وتستقبح عادة تعدد الزوجات بين الطبقات المهذبة العالمة بتاريخ اسلافها والقادرة على مقابلته بتاريخ بقية الامم اما في بلاد فارس فقسم صغير من السكان يتمتع بهذه العادة المتروك بلذتها (١) والمأمول ان يقوم قريباً جماعة من حكماء المسلمين يفتون بان تعدد الزوجات كالرق مكروه في شريعة الاسلام .

ولنرجع الآن الى موضوع زواج النبي المتعدد وهو يظهر لكثيرين ممن يجهلون الحقيقة او يتجاهلون موضع انتقاد ومحل لوم . ومنتقدوه من النصارى يذهبون الى انه باتخاذه زوجات متعددة ميز نفسه بما لم يجوزه الشرع فاظهر ضعفاً في الاخلاق يصعب التفاقه مع النبوة . الا ان التعمق في التاريخ وتقدير الحقائق بدلاً من ان يبرهن ان النبي كان مفرطاً في الشهوات يدل دلالة صريحة على انه كان يفادي بالعزيز في سبيل الغير باتخاذه بحسب شرع امته عدة زوجات فقيرات وسد حاجتهن وهو فقير لا مال له ولا عقار . واننا اذا درسنا عواطفه درساً مدققاً ونظرنا اليها من الجهة الانسانية يظهر لنا تحرص المعترضين عليه . ولما تزوج خديجة كان في الخامسة والعشرين من العمر وكانت هي اسن منه كثيراً وقد قضيا سوية نحو ربع قرن رافلين في اثواب السعادة والاخلاص وكانت كل هذه المدة رفيقه الوحيد ومساعده الامين على تخفيف ما كان يصيبه من اذى قريش واضطهادهم وعند حلول اجلها كان في الحادية والخمسين ولا يمكن لاعدائه ان ينكروا انهم لا يرون في حياته كل هذه المدة ثلمة في اخلاقه او نقطة سوداء في صحيفته البيضاء . وهو لم يتزوج بغيرها في حياتها على ان الرأي العام في عشيرته يجوز له ذلك لو شاء .

وعند رجوعه من الطائف بعد بضعة اشهر من وفاتها وهو ضعيف مضطهد تزوج بسودة ارملة السكران وهو ممن كان اسلم وهاجر الى بلاد الحبشة فراراً بدينه وبنفسه من قريش وقد توفي في منفاه وابقى من بعده امرأته في اشد البؤس والشقاء . وعوائد البلاد لا تمكنه من مساعدة هذه المسكينة ان لم يتزوج بها لذلك نرى ان مبادىء الانسانية والشفقة تحتم عليه اتخاذها زوجاً له على انه كان حينئذ في اضيق الحالات

(١) اثنان في المئة فقط بحسب احصاء مكركني

وكان عبدالله بن عثمان بن ابي قحافة المعروف بعد ذلك في التاريخ (بأبي بكر) من اتقى الاتباع واشدهم تعلقاً بالنبي واسبقهم للاسلام وهو اشبه بعلي بن ابي طالب من حيث حبه للنبي وكانت لهُ ابنة صغيرة اسمها عائشة فكان جل قصده ان يمكن علاقته بالنبي بتزويجه ابنته وكانت حينئذٍ في السابعة من العمر الا ان عوائد البلاد تسمح بمثل هذا الزواج وبعد الاخاء صارت تلك الآنسة الصغيرة في مصاف الزوجات الطاهرات .

وبعد مدة من وصول المهاجرين الى المدينة حدثت مسألة تدل على حال المعيشة العربية في ذاك الزمن وكل من عرف العرب وعرف انهم اهل أنفة وحرب واثآر يتيسر له ان يدرك سر هذه الحادثة وهي ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني كانت له ابنة اسمها حفصة فقدت زوجها في غزوة بدر وكانت صعبة المراس حادة المزاج كابيها لذلك كان يتجنبها الصحابة ويكرهون التزوج بها فكان ذلك كاللوم والتوبيخ عند ابيها وليدفع عن نفسه ذلك عرضها زوجة على ابي بكر فابى ثم على عثمان فابى ايضاً فذهب مغضباً الى النبي ليشكو اليه ماحلقهُ من العار فكان لابدّ من ارضائه وتسكين غضبه بحل هذه المعضلة الا ان ابابكر وعثمان يستحيل عليهما احتمالها والصبر على خلقها . وربما نعد اليوم هذا النزاع واسبابه الواهية من المضحكات لكنهُ كان كافياً في ذلك الزمن لاشعال نار الفتنة بين المؤمنين وهم في اول امرهم فتدارك النبي ذلك وسكن غضب عمر بتزوجه ابنته وهكذا ارضى اصحابه واصلح ذات البين

ومن زوجاته هند ام سلمة وام حبيبة وزينب ام المساكين وهن ايضاً كن اراملَ ذهبت عداوة قريش بمن يعيلهن وامتنع ذوو قرابتهن عن مساعدتهن اولم يكونوا اكفاء قادرين

وكان النبي زوّج صديقه ومولاه زيداً سيدة اسمها زينب تنتسب لبيتين من اشرف بيوت العرب ففخرها بنسبها وربما بجمالها(١) ايضاً كانت تغتاظ من زواجها بمولى من الموالي وربما زاد في الطين بلة تكرار زينب في حال مناسبة كليات كان قالها النبي وقد زار زيداً ورآها مكشوفة الوجه وهي (سبحان الله العظيم سبحان الله مصرف القلوب) — جملة يقولها اليوم كل مسلم يرى صورة جميلة — وكانت زينب كثيراً ماتكرر امام زوجها هذه الكلمات التي قيلت في حالة الاعجاب الطبيعية لتريه ان جمالها اعجب الناس حتى النبي .

ولما عيل صبر زوجها زيد عزم اخيراً ان يطلقها فذهب الى النبي ليظهر لهُ ذلك فقال له النبي (مالك ارابك منها شيء ؟) قال (لا والله ما رابني منها شيء يارسول الله ولا رأيت الا خيراً) فقال له النبي (امسك عليك زوجك واتق الله) الا ان زيداً لم يطع الامر الشريف فطلقها فاغتاظ النبي من عمه خصوصاً وهو الذي خطبها عليه وزوّجه بها

(١) «المقتبس» اكثر هذه الروايات لا تثبت في كتب السيرة النبوية المعتمدة

وبعد نجاح زينب في الخلاص من خصمة زيد قامت تلح في طلب التزوج بالنبي ولم ترجع حتى تشرفت بان تكون في عداد زوجاته

وللنبي امرأة اخرى تدعى جويرية ابنة الحارث سيد بني المصطلق كان اسرها المسلمون في غزوة لاخماد ثورة قامت بها عشيرتها ورضي منها من اسرها ان تفتدي نفسها بفدية تقدمها له فسألت النبي هذا المال فاعطاها اياه حالاً فاعترافاً بفضله عليها وشكراً له عرضت نفسها عليه فرضيها زوجة وحالما عرف المسلمون هذا الارتباط الجديد قالوا فيما بينهم ان بني المصطلق صاروا من ذوي قرابة النبي فيجب علينا ان نكرمهم ونعاملهم بما هم اهله وهكذا عفوا عن الاسرى حتى بارك هذا الزواج السعيد مئة اسرة أطلقت من الوثاق . وكانت صفية اليهودية ممن أسره المسلمون في غزوة خيبر فاعتقها النبي وكرمها بالتزوج بها

ومن زوجاته ميمونة وهي من ذوي قرابته تزوجها في مكة وكانت فوق الخمسين من العمر . وهذا الزواج اكسب الاسلام رجلين مشهورين هما ابن عباس وخالد بن الوليد قائد قريش في وقعة أحد وقاهر الروم

وهكذا كان حال زواج النبي ومن الممكن انه تزوج بعض الاحيان ليرزق ولداً لانه لم يكن من الآلهة وربما شعر بالميل الطبيعي الى ترك وارث من بعده وقد يكون احب التخلص من اللقب الذي لقبه به اعداؤه ولكن اذا نظرنا الى الحقائق كما هي نرى ان هذا الزواج المتعدد نشأ عنه من المنافع زيادة على ما ذكرنا ميل لائتلاف القبائل المتعادية واجتماع كلمتها . ومما يجب ذكره ان عادة الاخذ بالثأر كانت شائعة في الجاهلية وهي التي اضعفت القبائل ولم يكن اذ ذاك بيت ليس له ثارات او عليه ثارات تقتل فيها الرجال وتستحي النساء . ولما قام موسى وجد هذه العادة شائعة في قومه ايضاً (كما تشيع في الأمم اذا كانت على درجة من العمران مخصوصة) ولما لم ينجح في ابطالها اباحها الا ان النبي محمداً كان اشد ادراكاً للدواء الذي يجب استعماله فربط القبائل المتنازعة بعضها ببعض كما ربطها بنفسه برباط الزواج وعند حلول اجل البعثة وقف على عرفات وصرح بابطال هذه العادة الجاهلية .

الا ان خبث اعداء يجورون في احكامهم ويتعصبون لاوهامهم شوه عواطف حملت محمداً على تعدد زوجات كن ارامل ومستضعفات لولاه شتيا بين المربع ولجفت قلوبهن من حرارة الجوع على ان هذه العواطف اباحها الانبياء السابقون . وربما عد الغربيون اليوم عادة تعدد الزوجات شراً محضاً وليست هي بالمحرمة فقط بل نتيجة شره وفساد وكأني بهم قد نسوا ان هذه العوائد كلها هي نتيجة المحيط وابنة الحاجة وان كبار الانبياء من اليهود وهم

مثال الكمال في المذاهب السامية اجازوا تعدد الزوجات واستعملوه الى حدّ يعد في نظر المعاصرين نهاية الفساد .

والغالب ان يقال ان الواجب على النبي ان لا يخضع لاي ضرورة تضطره الى مدح عادة سيئة كهذه او لاباحتها وان الواجب عليه تحريمها بتاتاً فالسيح غض الطرف عنها ولم يتعرض لها . لكن من امعن النظر يرى ان هذه العادة مثل كثير غيرها من العوائد ليست شرّاً محضاً والشر كلمة نسبية لانهُ قد تكون عادة من العادات مباحة في اول الامر تقبلها مبادي الافراد والجماعات الا ان تقدماً في افكار الامة وتغيراً في احوالها ربما يجعل هذه العادة مضرة حتى تمنعها الحكومة بعد حين . اما ان الافكار تترقى فهو من المسلمات واما ان العوائد والاعمال تتوقف على ترقي الافكار وانها تكون حسنة او سيئة بحسب الاحوال (وروح العصر) فهي حقيقة يجهلها اهل الافكار السطحية كثيراً

بيروت عبد الرحمن شهبندر

الكنى والالقاب

جرى الاصطلاح في الاسماء على تقسيمها الى علم وهو ما علق على شيء بعينه غير متناول ما اشبهه ولقب وهو ما اشعر بمدح او ذم وكنية وهو ما صدر باب او ام

وقد ولع العرب بالكنى والالقاب ولعاً غريباً حتى صاروا يكنون الطفل والعقيم بل الوحش والطير بل الجماد والمعاني كما ستراه

من اعظم مقاصد الكنى في الاناسي خشية مبادرة اللقب السيء على لسان عدو او ماجن فليصق بالمرء لصوق الجرثومة في المنبت الوبي، وفي اثر (بادروا اولادكم بالكنى قبل ان تغلبهم الالقاب) . ومن مقاصدها فيها تعظيم المكني وتوقيره فقد فطرت الانفس على كراهة خطابها باسمها ومشافهتها به . واما في غير الاناسي فلقصد التوسع في باب الاعلام والتفنن في الاوضاع والازدياد من المعاني . ولم تك كناهم تخلو عن نكتة وسر في وضعها اي ملاحظة معنى بازائه يكون الوضع كما قالوا في ابي لهب كني به لجماله لان اللهبة البياض الناصع واوثر في التنزيل الكريم اما لشهرته به او للتعريض بكونه جهنمياً وكما قالوا للضبع ام رسم لانها ترسم الطريق لا تفارقه وام المثوى لصاحبة المنزل والامثلة بطول تعدادها ويسهل تعرف اسرارها من معاجم اللغة المطولة

وما برحت الكنى والالقاب آخذة في الاعلام دوراً مهماً في الجاهلية والاسلام سيما

في قرونه الوسطى فقد نسيت بسببها اعلام كثير من الاعلام لغلبتها عليها ولقد رأيت من يخفى عليه مثلاً اسم الامام ابي يوسف او القاضي ابي الطيب ونحوهما ممن اشتهر بكنيته فنسي اسمه لذا سنح لي ان ابين قاعدة للقدمين في نوع من الكنى والالقاب تنكشف بها معرفة الاعلام مما اصطلح عليه اولئك وجرى عليه المؤرخون

فمن الكنى ابواسحق كنية لمن اسمه ابراهيم تأسياً باسمي الخليل وابنه عليهما السلام ابو ابراهيم لمن اسمه اسماعيل . ابوالحرث لليث وارسلان . ابوالحسن لعلي . ابوداود لسليمان . ابوالدرّ لياقوت . ابوزكريا ليحيى . ابوسليمان لداود . ابوالشكر لايوب . ابوالصبر له ايضاً ابوالطيب لطاهر . ابوالعباس لاحمد وخضر . ابوعلي للحسن والحسين . ابوعمران لموسى . ابوالفضل لجعفر والربيع ويحيى . ابوالفتح لنصر . ابوالقاسم لعليّ ومحمود . ابومحمد لعبدالله ابو محفوظ لمعروف . ابوالمعالي لعبدالملك . ابومروان له ايضاً . ابوالمسك لكافور . ابوالميمون لمبارك . ابوالمنصور لظافر . ابوالوقت لعبدالاوّل . ابوهريرة لعبدالرحمن . ابو يحيى لزكريا . ابو يوسف ليعقوب .

ومن الالقاب للمتأخرين . سيف الدين لغازي . شمس الدين لمحمد . شهاب الدين لاحمد . صلاح الدين ليوسف . عماد الدين لاسماعيل .

هذا ما غلب من الكنى والالقاب واشتهر في تلك الاسماء وقد يكون لها كنى والقاب اخرى . وقد يكون للمرء عدة كنى كما تراه في قولهم ذو الكنى وقد يشتق للمرء كنية من معنى اسمه او اشارته او حاله (ومنه ابوالطيب) لمن اسمه طاهر لما بين الطيب والطهر من التناسب وكذا (ابوالسرور) لمن اسمه عيد . وابوالجود للسخيّ . وابوالمطاع للامير . وابوالغارات للمجاهد . وذوالقرنين لعظيم الملك . وقد لا يكون لشيء من ذلك كما حدث في عهد منح الالقاب المضافة لذوي السيطرة من اجيال والمضافة للدين وقد اشار للثاني الاديب الخليع عبدالرحمن المسجف الملقب ببدر الدين من رجال فوات الوفيات (مدفون في بستانه بدمشق قرب المزة وامام قبره المحجر قبة يجري عندها نهر تظن اهل القرى هناك انهُ من الاولياء وليس تحت القبة مزار) في قوله

قالوا تلقب بدر الدين مفتخراً ... نجل الجنوبيّ من قد زيّن الامنا

فقلت لا تعجبوا منهُ فذا لقب ... وقف على كل نحس والدليل انا

وقد يكنى الرجل باكبر اولاده او باشهرهم او باحبهم اليه وقد يكنى بابن اخيه كما كنيت السيدة عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها بام عبدالله ابن اختها وقد يكنى الرجل بما يقوم عليه و يعرف به كأبي الرجال لمن تربى عنده فتجباه مجازاً ولمن له عدة اولاد حقيقة وبما

ظهر فيه من اليمن والخير كأبي البركات وقد وضع كثير من الالقاب والكنى علماً برأسه في العصور الاخيرة كبهاء الدين وصلاح الدين وابي الخير وابي بكر ولا حجر في ذلك الا ان القرون الاولى كان لاسمائها نوع نظام سهل به وضع نظام بازائها لالقابها وكناها مع ما شف عن ادب مع الائمة الاعلام فان من رعاية الكبير وقدره قدره وضع لقب له يعرف به . نعم لكل عصر مظهر ولكل دور طور ولكن باب الادب مع الاعلام لا يغلق على الدوام

قلنا يلغ من شغف العرب بالكنى ان وضعتها للطير والوحش والجماد والمعاني لما ملئت به اسفار اللغة من ذلك فمن ذلك ابو الحباحب لدويبة تظهر ليلاً صغيرة يخيل انها نار . وابوالحصين للثعلب . وابوجعدة للذئب . وابو براقش لطائر فيه الوان . وابوفراس للاسد وابوحفص له ايضاً . وابوقبيس لجبل بمكة . وابو الابيض للبن . وابوالاثقال (الحملات) للبغل . وابوالاخضر للريحان . وابوالاصفر للخبيص . وابوايوب للجمل . وابو بحير للتيس وابوحماد للديك . وابوحميد للدب . وابوحيان للفهد . وابو خداش للسنور . وابوصابر للحمار . وابوشجاع للفرس . وابو طالب له ايضاً . وابو طامر للبرغوث . وابوعاصم للزنبور وابو العوام للسمك .

ومن المعاني ابومالك للهرم . ابوسعد له ايضاً . ابو مرحب للظل . ابو زيد للكبر . ابو عمرة للفقر وسوء الحال والجوع . قيل لاعرابي اتعرف ابا عمرة قال كيف لا وهو متربع في كبدي .

ومن الامهات ام القرى لمكة المكرمة . ام قشعم للمنية . ام الرأس لاعلى الهامة . ام الدماغ لجلدة الرأس . ام جابر للخبز . ام سويد للاست . ام الهدير للشقشقة . ام الطعام للمعدة . ام النجوم للثريا . ام خداش للهرة . ام شبل للبوة

وقد الف في معرفة الكنى عدة مؤلفات منها كتاب ابي العباس الاحول ولم يتقدمه احد في هذا الفن والف ابن السكيت كتاب المثنى والمكنى والمبنى والمؤآخى ولابن الاثير كتاب سماه المرصع . وعني المحدثون بهذا الفن وصنفوا فيه ايضاً منهم الامام ابن المديني ثم الامام مسلم ثم النسائي ثم الحاكم ابواحمد — غير صاحب المستدرك على الصحيحين — ثم ابن مندة والدولابي . وكذا صنف غير واحد من الحفاظ في معرفة الالقاب كالشيرازي وابي الفضل الفلكي وابي الوليد الدباغ وابي الفرج بن الجوزي وآخرهم الحافظ ابن حجر . وليت واحداً منهم مثل للطبع وياليته مانسي من العلوم واسفارها . وللمحدثين تقسيم غريب في باب الكنى اوصلها بعضهم الى تسعة

(١) من سمي بالكنية ولا اسم له غيرها كابي بكر بن عبد الرحمن احد الفقهاء السبعة بالمدينة

(٢) من عرف بكنيته ولم يعرف له اسم كأبي مويهبة مولى النبي صلوات الله عليه

(٣) من لقب بكنيته وله غيرها اسم وكنية كأبي تراب علي رضي الله عنه اسماوابي الحسن كنية

(٤) من له كنيتان او اكثر كمنصور الفراوي ابي بكر وابي الفتح وابي القاسم

(٥) من اختلف في كنيته كأسامة رضي الله عنه ابي زيد وقيل ابو محمد وقيل غيرهما

(٦) من عرفت كنيته واختلف في اسمه كأبي بصرة قيل هو حميل (بالحاء مصغرا) وقيل جميل (بالجيم مكبرًا) وكأبي هريرة قال القطب الحلبي اجتمع في اسمه واسم ابيه نحو اربعين قولاً واسمها عبدالرحمن بن صخر

(٧) من اختلف فيهما كسفينة مولى النبي صلى الله عليه وسلم حكي في اسمه وكنيته اثنان وعشرون قولاً

(٨) من عرف بالاثنين كأبي عبدالله سفيان الثوري ونحوه مما لم يختلف فيهما

(٩) من اشتهر بها مع العلم باسمه كأبي ادريس الخولاني عائذ الله

دمشق احد قراء المقتبس

تاثير العقائد والمقاصد في الاخلاق

ان العلماء الذين وضعوا الكتب المطولة والمختصرة في تهذيب الاخلاق لم ينظروا الى هذا البحث الدقيق الا من عرض فلا يعثر لهم على كلام يكشف القناع عن حقيقته ويجمع اطرافه وانما ذلك لان الحوادث والاحوال لم تتجه بهم الى الدخول من هذا الباب ولقد رأيت العصر يستصرخ الحراص على انتظام الاحوال ويتقاضى الكتاب القائمين على هداية الناشئة الى سبيل النهضة الادبية ان يقبلوا عليه اقبال المغرم بالدنيا على استخراج الكنوز المدفونة وان يبذلوا الجهد في اظهار ماخفي من اسراره ويستنفدوا الوسع في اباحة ماحجب من ذخائره

ولما رأيت ان الكلام فيه من جلائل الخدم التي يسع المنشيء ان يقوم بها لاهل العصر هزني الغرام بهذه المحمدة ان اتوفر ليلة على انشاء مقالة اكلف المقتبس ان يحملها الى قرائه المنبثين في الآفاق مع ما يحمل اليهم من ازاهره العاطرة وثماره الطيبة الناضجة آملاً ان تلاقي عند الشبان الادباء والناشئة النجباء ما يلاقي الزائر الكريم من المشاشة واكرام الوفادة في منازل الكرام وبيوت الكبراء وذلك بان يكرموها بالمطالعة وتدقيق النظر فيما يترتب عليها من النتائج المفيدة بل من الادوية الناجعة في شفاء ادواء الاخلاق اذا اندفعت النفوس لاتباعها واحبت الجري عليها .

تعريف الخلق

الخلق بضم فسكون والخليقة والفطرة والطبع والطبيعة والغريزة وما هو في معناها صفة باطنية تشبه الصورة الظاهرة فالكرم الذي طبعت عليه نفس زيد خلق يشبه ما ترى من الجمال في محياه والشجاعة التي فطرت عليها نفس عمرو بمنزلة ما ترى من طول قامته وامتلاء اعضائه . وقد اختلف اصحاب الحكمة الخلقية في قبول الاخلاق للتغيير فمن قائل ان الاخلاق لا تقبل التغيير الا متى صار الذئب حملاً والجمل يرغوثاً ودليلهم ان الخلق الباطن مثل الصورة الظاهرة وهذه لا تقبل التغيير فهو كذلك لا يقبل التغيير ومن قائل ان الاخلاق تقبل التغيير فمن طبع على الشح تصيره بعض الاحوال اكرم من حاتم ومن فطر على الجبن فقد يقوم في خياله ما يحبب اليه الموت حتى ان الصورة الظاهرة في الانسان تتغير تبعاً لحالة النفس كما يرى في وجه الغضوب والمنفعل والمسرور والكدو الخائف والمطمئن والخالي القلب والمهموم والا فأين هيئة من يتوقع العزل عن منصب عال من هيئة من يبشر بالارتقاء اليه واين صورة من يرزأ ظهيره من صورة من يلقي نصيره وهل من فرق بين من قد تداعت جدرانه فكمن دخل صرحه وقد كمل تشييده وتزويقه فاذا علمت ذلك تبينت ان الرأي انما هو رأي القائل بقبول الاخلاق للتغيير والا فمن اين تعلم الذب الرقص واي فائدة للشرائع ان لم تحدث تغييراً في الطبائع وتبدلاً في الغرائز .

فان كنت تريد ان تتعرف تصاريف الطبائع واحوالها فلا بد لك من امرين الاول ان تراقب ذلك في الناس وفي نفسك . والثاني ان تنظر الى ما يولده اختلاف العقائد وتبدل المقاصد في النفس البشرية حتى ينقلب الراغب زاهداً والزاهد راغباً والشجاع جباناً والجبان شجاعاً .

تأثير العقائد

العقائد مبادىء تقرر في ذهن صاحبها انه يسعد بطاعتها ويشقى بعصيانها وانه يهلك اذا خالفها ويفوز ان اتبعها وترسم على لوح قلبه أن حفظها يكفل له خاتمة سعيدة وآخرة حميدة وان نبذها يدفعه الى عاقبة شؤم ونهاية عذاب فبهذه العقائد باطلها وحقها سواء من حيث التأثير في نفس المعتقد فمن استحكمت العقيدة في روحه هان عليه كل عزيز وغال في سبيلها فتحلو له المرائر وتطيب له المكاره حتى اذا دعته الى فراق الحياة لبى دعاءها فبهذه اقاصيص الشهداء واحاديث الاولياء تبسط امامك من آثار العقائد الحية في الصدور ما تريك افانينه ان الاهواء البشرية اماء خواضع طوائع لملك الاعتقاد المتسلط على النفس وكم لك في سير الرسل الكرام من خطيب صدع بان لا سطوة في الكون على النفس الا دون سطوة العقائد . واذا ذكرت القوم الذين كانوا يجيزون بنيب في النار اكراماً لتمثال مولوك

الذي اتخذوه معبوداً يلجأون اليه . والهنود الاولى يرمون باولادهم في النهر . او اخطرت على بالك الشيوخ والعجائز الذين يأتون من اقاصي الارض الى اورشليم تبركاً بزيارة قبر المسيح غير مبالين بما يقاسون من مشاق السفر ومكاره الغربة مع ما يستلزمه بعد الشقة من وفرة النفقة تطمئن ان لا سيد للنفس البشرية الا وسيادته دون سيادة الاعتقاد .

تأثير المقاصد

واذا راقبت الناس عوامهم وخواصهم رأيتهم الا قليلاً منهم يجورون على عقولهم ويغالطون حسهم ويكذبون عيونهم في سبيل مقاصد تحيك في نفوسهم فاذا كلفت انفسهم بشيء او مقتته يخال من يسمع كلامهم فيه انهم قد فارقوا ابابهم او ان البابهم قد فارقتهم فان احب احدهم بلدة جعل الحسن مقصوراً عليها وقال سعادة الحياة لا تعرف الا تحت جوها والتنزه لا يطيب الا في كرومها وبساتينها وان ألم الظماء لا يشفى الا بورد مائها وان كرم الخلال لا يتعدى سكانها والتبحر في العلم لم يعهد الا لعلمائها وان الفصاحة لم تظهر بدائعها ولم تبدُ روائعها الا على السنة خطبائها وشعرائها وان رئاسة الصنائع قد انتهت اليها وان الجود لم يضرب خيامه الا في ارضها وبالجملة فانها المخصوصة من بين بلاد الله كلها بانها مجتمع المحاسن الطبيعية والصناعية وانها الحرية بان تستبد بمجد التفوق على كل بلدة في الارض واذا كره بلدة قال نسيمها يحمل نسم الامراض (١) وثمارها تورث الاسقام وحرها يذيب الاجسام واهلها خبثاء لئام وعلماؤها اقل من صغار الطلاب علماً وخطباؤها اقل الناس عقلاً واضعفهم تصوُّراً ليس لهم من مقتضيات الخطابة الا الجراءة على الكلام في المحافل فاذا سمع ذو لب من خطبهم اشتهى الصمم واحب البكم وتعجب ممن يبيع الخرز بسعر الدرر وينادي على النحاس كما ينادي على الذهب بل استغرب امر من يعرض القطن ويقول هذا حرير ثم يشتري منه القطن حريراً والنحاس ذهباً .

واعلم ان تساوي البلدتين هواء وماء وادباً وعلماً وتجارةً وزراعةً عند جميع الناس لا يردّه عن قصر المحاسن عليها دون الاخرى اذا كان له من وراء مدحها غاية كما لا يردعه عن سلب كل حسن عن البلدة الأخرى وهكذا يفعل بهم الكلف والمقت في سائر الاشياء وانك لترى اثر هذا الامر في تلاميذ المدارس فقد يقوى قصد احدهم تارة فتشتد رغبته ويكثر تحصيله وقد يضعف تارة فتضعف رغبته في الطلب ويقل تحصيله وقد نرى في الطلبة من رسخ في نفسه فضل العلم فذلك لا يعتريه في طلبه ملل ولا يا خذه ضجر ولا يستطيل زمان التحصيل وان طال ويحسب الكتب مغاوص اللؤلؤ ومعادن الذهب .

(١) اردت بنسم الامراض المكروبات .

الخلاصة

فصارى القول ان من اراد حمل الناس على محمدة فلا مندوحة له ان يزرع في نفوسهم بزور الانتفاع بها واكتساب الفائدة بتحصيلها حتى اذا تمكن تصوُّر ذلك في اذهانهم اقبلوا عليها اقبال الناس لهذا العهد على ما يجدُّ من الازياء (المود) وعلى سبيل الاستطراد اقول ان من اراد الاقتدار على الترغيب وبلوغ الارب فليقفُ آثار مخترعي الازياء فهؤلاء هم أئمته العظام وشرَّاحهُ الكرام وكل ما في كتب الخطباء من التنبيهات لا يعدل بجزء مما يجري على السنتهم او يصوَّر في دفاتر ازيائهم فهؤلاء قد عرفوا الطباع البشرية وخبروا الاهواء الانسانية وقبضوا على مفاتيح القلوب وعرفوا طرق الوصول الى امتلاكها فمثلهم مثل واعظ كلف ان ينهى النساء عن اتيان المعابد بالزينة والروائح الطيبة فقال قد شكا اليَّ واعظ البلدة انكن تأتين المعبد متطيبات وعلى رؤوسكن انواع الزينة وانهُ طال ما نهى عن ذلك فزادكن النهي تمادياً في الامر فاجبنهُ ان لا حق لك في ذلك . فتعجب واستغرب وقال ما السبب قلت الا وان الادب يقضي على كل من تعلم ان رائحة فمها خبيثة ان تتعطر وتتزين حتى لا تؤذي جاراتها فما سمعت النساء هذا الكلام حتى دققت كل واحدة تنزل ما على رأسها من انواع الزينة حذر ان يظن ان رائحة فمها خبيثة ومن ثم فجرن التزين والتخلق والتعطر واقتصرن على الذهاب الى المعبد بالاثواب النظيفة فقط .

فلو لم يكن هذا الواعظ فطناً ذا علم بما ركب في الطباع لذهب كلامهُ بلا فائدة كما ذهب كلام واعظ البلدة من قبل .

بيروت سعيد الخوري الشرتوني

الميكروب

الميكروب اصغر ما خلق في عالم الاحياء جرماً وجسماً واعظمها قوَّة وفعلاً . كان اولاً يعيش ويتنفس على سطح المعمور منسابا بين بقية المخلوقات دائبهُ دأب كل حي من ايجاد القوت والمكافحة للحياة والبقاء . ذلك انه لا يترك جامداً يحتوي على بعض ما يصلح لغذائه الاَّ ويحاله مبدلاً حاله تبديلاً او يمحوهُ فيجعله اثراً بعد عين وليس في الارض حيٌّ من حيوان ونبات الاَّ وهو يتصدى لهُ منازعاً اياه قوته وحياته . بيد انهُ في ذلك يخدم بانواع منه عالم الحيوان ويقوم بوظيفة عظيمة الخطر كتحويل المواد الجامدة الى غذاء يعيش به غيره وكاصلاح انفس المأكولات والمشروبات للانسان بواسطة لاختمار وبانواع اخرى منه

يكون مفسداً وشريراً . فان اكثر آفات الزروع وضربات الاشجار وامراض الحيوانات والبشر يكون الميكروب مسببها والفاعل الوحيد فيها . فهو لنا في الحياة رفيق تير مفارق ومجاور جابر او جائر .

وعلى هذه السنة مرت السنون والاجيال والانسان تناله من الميكروب الضربات والنكبات ويتجرع السموم بصبر جميل من دون ان تتجلى له يد الجائر بل لم يخطر له ببال او خيال بان هناك عدواً خفياً يحمل الى الاحياء داء دوياً .

وذلك بالنظر الى الحيوان والانسان خاصة . اما اذا انعمنا النظر وسما بنا الفكر ونظرنا في وظيفة الميكروب على وجه البسيطة نظراً عاماً بعد ان نكون قد اعتبرنا وتوغلنا في الاحاطة بتنافع كل من انواعه واحدة فواحدة تحار عقولنا لا محالة من حكمة مبدع الكون الذي جعل اصغر مخلوقاته وانحفها يقوم باعظم وظيفة وخدمة في العالم . وناهيك بتحول جثث الموتى مثلاً الى تراب وهذا الى ما يصلح لتغذية النباتات وغيرها وكذلك اصلاح مياه البحور والانهر من ازدياد الاملاح والاوساخ فيها التي تتافى حينئذ وجود الاسماك والحياة مطلقاً يتوقف كله على الميكروب . فلولاه لما حصل التعديل والموازنة بين الجامد والحي وتعطلت بينهما الدورة الطبيعية فتعذر الخلود بل وجود عالم الاحياء . والميكروب في فعله ذلك انما يسعى لنفسه ويطلب الغذاء لحفظ حياته وخلود نسله .

آراء الاقدمين في تولد بعض الحيوانات من دون والد

لم يعرف الميكروب الا اناس قلائل من القدماء عرفوه بالظن والحدس فكانوا يخبطون خبط عشواء في امر تولد الذباب والحشرات والدقيق من كل حيوان ونبات . وما كان ذلك عن نقص في ادراكهم بل لانهم لم يدخلوا المسألة من بابها ولقلة اطلاعهم فيها وقلة ما لديهم من الآلات والوسائط التي ساعدت المتأخرين على حلها . فيجدر بنا قبل ان نبحث عن هذه ان نذكر بعض آراء الاقدمين في تولد بعض الحيوانات والنباتات من دون والد

قيل ان ارسطو كتب في بعض مادون كل جسم يابس ابتل وكل مبتل منه جف يولد الحيوانات الدقيقة . وينسبون اليه أيضاً الزعم بان الديدان التي تظهر على بعض البقول في مزارعها لا تتكون الا من تعفن الاقذار والاوساخ وتخمرها اعني السرجين الذي تصلح به الحقول والسماد الذي يخصب التربة . وكذلك تتكون البراغيث في التراب . وقرر الشاعر فرجيل بانه قد يتولد النحل من امعاء ثور جافة . وقال فلوطرخس بان ارض مصر الكثيرة المستنقعات تتولد فيها الفيران والجرذان من دون والد .

وفي القرن السابع عشر قال «فان هلمونتسا» بان الروائح الكريهة التي تنبعث من قعر

المستنقعات تتولد منها الضفادع والبزاق والعلق وبعض الحشائش الى غير ذلك من الحشرات والذباب التي يشاهد فيها وكان على يقين في قوله فيزعم انه اذا اخذ جرة وملأها قمحاً وسد فمها بخلق قميص وسخ ثم يمر على ذلك القمح اكثر من واحد وعشرين يوماً حتى يتحول الى فيران . وهذه يكون منها ذكور واناث تتزاوج وتتكاثر . ومن هذا القبيل كيفية تولد العقارب من الحبق فان العالم المذكور كان يشير على من اراد التجربة ان يأخذ آجرة ينقر على احدى جوانبها حفرة يملأ وها بمسحوق نبات الحبق ثم يأخذ آجرة أخرى يضمها الى الثانية مغطياً بها حفرة الحبق فلا يلبث هذا مدة حتى يتحول الى عقارب حقيقية . وقيل ان بزر السماق يتحول الى قراد الكلاب ودودة القز بزرها نباتي الى غير ذلك من الآراء الواهية التي لم تبن على ملاحظات حقيقية . وهو مما يستغرب حقيقة من رجال كانوا افراد زمانهم على حين هم من السذاجة والجهل على جانب ويتعرضون لحل اعظم المسائل الطبيعية كالتولد والحياة بنوع من القول لا يقبله العقل السليم

وكان ريدي الايطالي اول عالم فتح باب الملاحظات المدققة في مسألة تولد الديدان من والد وذلك سنة ١٦٣٨ فانه قال بان الدود الذي يشاهد في اللحوم الفاسدة يتولد من بيضات يلقيها الذباب الذي يقف عليها . فاذا غطى اللحم حين قطعه بنسيج رقيق يمنع عنه الذباب فلا يعود يتولد فيه دود البتة . نعم ان هذا الرأي صحيح ولكن ريدي المشار اليه لم يتمكن من اقناع جمهور العلماء ولم يظفر بشرف الاكتشاف . لان الفضل ليس لمن عرف الحقيقة بل لمن اكتشف احسن اسلوب واعظم واسطة لاثباتها واقناع العموم بها اقناعاً منطقياً حسياً . فلم ينتج ادنى منفعة للعلم من هذا الاكتشاف ولم يتصد او يتحزب له احد بل دامت المجادلات في مسألة التولد الذاتي نحو مائتي سنة وهي في طور الخدس ولم تتقدم اكثر مما فعل ريدي

تغلب رأي التولد الطبيعي او الحيوي

عند ما اخترعت النظارة المعروفة بالمكروسكوب اي نظارة الاجرام الدقيقة وسميت عندنا بالمجهر فتحت طريقاً جديدة للبحث في مسألة التولد المذكور وللحكم فيها حاسياً من بعد التحقق بالنظر والعيان فجرى التخالف والجدال بين القائلين بتولد الدقيق من الحيوان من دون والد او طرائيا والذين لا يقبلون الا بالتولد الحيوي الطبيعي مطلقاً . فادتهم خاتمة التجارب والتدقيق الى ساحة الحق فاتفقت الكلمة في القول بان كل حي من حي او كل بيضة من بيضة . فمن بعد اختراع المجهر طرحت المسألة هكذا : هل التولد الذاتي ممكن ومن اين تتولد الديدان والذباب وبقية الحشرات والدقيق من الحيوان .

فقال ردهام الانكليزي : ان الرأي المشهور بان الديدان والذباب حتى الفيران

والعقارب وغيرها قابل تولدها من ذاتها طرائياً في المواد الآلية الخامرة قد تبين غلطهُ واضمحلَّ على انهُ من الضلال تلك المواد وفسادها تولد حقيقة ألوف من الحيوانات الدقيقة التي لا ترى الا بالمجهر . فلا يقتضي ان ننكر او نشك في هذه الحقيقة من اجل غلطنا وجهلنا في تلك .

ثم قام «بفون» الشهير وتحزب لبدهام المذكور وحامى عن آرائه فتغلب وقتئذٍ على الحيويين لانه لم يكن بينهم كفوءٌ لمقاومته . وفي سنة ١٨٣٨ اكتشف اهرنبرغ نوعاً من الحيوانات في الماء والتراب لا ترى الاَّ بالمكروسكوب ما سماه بالانفروار وهي خلايا منفرقة ومنفردة عن بعضها كل منها قائم بذاته ولهُ جميع الخواص الحيوية اعني الاغتذاء والنمو والتولد . ومن بعدهِ بثمان سنوات سنة ١٨٣٧ اظهر «شوان» الالماني «وكانيارد لاتور» الفرنسوي كل من قبله ومن دون تعاط بينهما ولكن الاوَّل اسبق — بان الاختمار الذي يحصل حيث توجد المواد الآلية هو فعل حيوي تخلص بالخلايا او الحيوانات الدقيقة البسيطة التي سميت بالميكروب فهو اعني الاختمار لا يحصل الاَّ بها ملازم لها ومتوقف عليها وعلى الاكسيجين الذي يكون بمنزلة الغذاء للخلايا . فذاع هذا الاكتشاف وصار قاعدة عليها بنى رأي الحيويين وطرحت القضية هكذا : هل ان الاختمار والتعفن وبعض الامراض تفعلها الخلايا فعلاً حيوياً ناتجاً عن اغتذائها بشيء مما تتركب منهُ المواد القابلة الاختمار .

فاثبت شوان احد المكتشفين المذكورين بان جميع المواد المختمرة لا تخلو ابداً من الاجرام والخلايا الحية . ولدى الامتحان صادق عليه اكثر العلماء . واما المعارضون فانهم لما لم يروا سبيلاً الى انكار الواقع سلموا بالقضية ولكنهم حاولوا وجود اختمار من دون الخلايا عند ما زاحمتهم النتيجة كما سنبينهُ

دمشق

سليمان غزالة

علوّ الهمة

ابى الله ان يسمو الى قنن المجد ... ويعطي زمام الفخر الاّ فتى الجد
فتىً لا يبالي بالنوائب والنوى ... ولو طوّحته في حزون من الجهد
فتى ان يكن بالشرق امسى مقامه ... وفي الغرب مقباس بغاهُ على البعد
واطلق للشوق العنان فاوجفت ... صوافنه في السهل والغور والنجد
تجوب الفيافي معنقات كأنها ... قطارُ بخار هاج من سورة الحقد
فسار يباري الريح يبغي عدوّهُ ... وفي قلبه نار الضغينة تُضرَم

***

فلما رأى عجز الجياد وهاجهُ ... لواعجُ في الاحشاء من فبس الوجد
دعا قائدَ الشمس الندوار م زَوْرقًا ... اليّ فآتيها ورهطي او وحدي
فهذى الجياد الصافنات أكلها ... سراها على الآكام والحزن والوهد
لعلي اقضي ما اروم من المنى ... فارجع كالسيف الجراز الى الغمد

***

كذا فليكن همّ الرجال وحزمهم ... والاّ فموتٌ او رجوع الى المهد
فليس ينال المجد الاّ بهمةٍ ... اشدّ مضاءً من شبا الصارم الهندي
ومن لم يروّ النفس من آجن المنى ... ويقذف بها في هوّة الجهد والكدّ
فما هو يومًا للمعالي بصاحب ... ولا مالكًا ما عاش ناصيةَ المجد
ولا نائلاً من دهره ما يرومهُ ... ولا لحياض المكرمات بذي وِرد
وما المجدُ الاّ همة ان تمثلت ... تزلزلت الافلاك منثورة العقد
فلا تبغ ان ترقى الى ذروة العلى ... ولم تركب الاهوال نهمًا على وخد
فترجع عنها كاسف البال مخفقًا ... تمرّ بك الاطيار نحسًا بلا سعد
وهل يخطب الحسناء من ليس قادرًا ... على مهرها ماذا لك من عادة الجمد
فمن شاء ان يولى السعادة فلتكن ... لهُ الهمة القعساء رائدةَ القصد
ويتخذ التقوى شعارًا ومذهبًا ... الى مورد الرضوان والمسرح الرغد
فمن يجعل التقوى هُدى لفعاله ... فما هو يومًا بالمزيغ عن الرشد
ومن عدم التقوى اناخت بصدره ... كوارث اشجان اشد من الصلد
وليس التقى ثوبًا لتقادم عهده ... وما لبسه زهدًا يعدّ من الزهد

ولا ان يُرى بين المصلين ساجداً ومذهبه الاضرار دأب الذئب الرغد
ولكنما التقوى فؤاد مطهر سليم من الآفات اشهى من الرند
به قد رمى سرح الوئام وبددت كتائبه سرح الشقاق عن الورد
فان رمت ان تحيى برغد من المنى بدنياك والاخرى مطيراً من الرفد
فجد لخير واجهد النفس حقبة من الدهر تبلغ منتهى شعف الحمد

بيروت مصطفى سليم الغلاييني

اليونان

معربة من كتاب تاريخ الحضارة

العناصر اليونانية

صورة هذه البلاد — ارض يونان من الاقاليم الضيقة المضطرب (هي ٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع) لا تكاد مساحتها تزيد عن مساحة سويسرا ولكنها بما فيها من اختلاف الاهوية وما يتخللها من الجبال وبتقسمها من الخلجان اقليم غريب في شكله خلق ليؤثر تأثيراً كبيراً في اخلاق ساكنيه . وتقطع ارض اليونان من وسطها سلسلة من الجبال (البند) فيناوح الجبل فيها جبلاً مثله ويقوم الصخر الى جانب الصخر حتى اذا بلغ ترعة كورنت ينخفض وترتفع مقاطعة المورة في اجانب الآخر من الترعة فيعلو عن سطح البحر ستمائة متر كأنه حصن احاطت به سلاسل عالية وعرة مثلجة تنزل في البحر على خط قائم وتمتد الجزر على طول الشاطئ وما هي الا جبال مغمورة يمر رأسها فوق الماء . وتقل في هذه الارض ذات الوهاد والنجاد التربة الزراعية وتكاد لا ترى حيثما القيت ناظرك غير صخور جرداء مرداء اما الانهار فتشبه سيولاً ليس فيها غير طريدة ضيقة من التربة المنبتة بين مجراها ونصفه جاف وبين صخور الجبال الجرداء . وكان في هذه البلاد الجميلة بعض غابات واشجار سرو وغار ونخيل وكروم غرست في مواضع من التلال ولكن قلما انتت بغلات جيدة او بمراعي خصيبة . فبلاد هذا شأن طبيعتها ينشأ ابناؤها متوقة قدودهم قوية اجسادهم قانعة نفوسهم .

البحر — تعد بلاد يونان من البلاد الساحلية وهي اصغر من البرتغال وشواطئها تكاد تقرب من شواطئ اسبانيا بكثرتها ينساب فيها البحر من عدة خلجان ووقائع (١) وتخاريم . ومن العادة ان يحيط باليم صخور لتقدم او جزر لتقارب يتألف منها مرفأ طبيعي . وهذا

(١) في القاموس الوقيعة نقرة في جبل او سهل يستنقع فيها الماء جمعه وقاع ووقائع .

البحر اشبه ببحيرة لامدّ فيها ولا جزر ولذلك سلمت شواطئه من الضرر وليس لونه كالبحر المحيط ابيض كامداً كثيباً وهو في العادة هادي، صاف ولونه كالبنفسج كما يقول هوميروس ولا أكثر استعداداً من هذا البحر للسفر فيه سفراً قصيراً . ولقد تهب ريح الشمال صبيحة كل يوم فتسير بها قوارب مدينة آثينة نحو آسيا وتقذفها ريح الجنوب في المساء الى المرفاء والجزر من بلاد اليونان الى آسيا الصغرى قائمة مثل صخور الكمين واذا صحت السماء تقطع السفينة المسافة وهي بمقربة من اليابسة تراها كل حين . ولذلك كان لسكان هذه البلاد من سكون بحرهم باعث على ركوبه واجتيازه فاصبح اليونان من ثم بحارة وتجاراً وسياحاً ولصوص بحر ومنتشرين على نحو ما كان الفينيقيون فانتشروا في العالم القديم اجمع وجلبوا الى بلادهم سلع مصر و بلاد الكلدان وآسيا واختراعاتها .

هواؤها — لطف هواء بلاد اليونان حتى ان الجليد في آثينة لا يحدث الاّ في كل عشرين سنة والحر معتدل في الصيف بما يهب عليها من نسيم البحر والى اليوم لا يزال الشعب فيها ينام في الطرقات منذ شهر مايو « ايار » الى اواخر سبتمبر « ايلول » والهواء فاتر جاف وكان يُرى على بضعة فراسخ في القلعة المطلة على آثينة ريش تتثال بالاس وليست دوائر الجبال القاصية مستورة بالضباب كما هو الحال عندنا معاشر الفرنسيس بل انها تُحل بأسرها في السماء الصافية . هذه البلاد بجمالها تدفع المرء ان يتخذ الحياة عيداً فيرى كل شيء يبسم حوالية فمن نزهة في الحدائق بالليل واستماع اصوات الصراصير ومن الجلوس في ضوء القمر والضرب بالشباب وقصد الجبال للشرب من مائها واستصحاب الراح وشربه على النغمات والاغاني وقضاء الايام في الرقص هذه هي ملاذ اليونان وما هي الا ملاذ جيل من الناس فقير مقتصد فتيّ لا يعرف الهرم ابداً .

بساطة العيشة اليونانية — لا يتعب المرء من حرارة هذه البلاد ولا يشقى ببردها بل يعيش في الهواء الطلق مسروراً قليل النفقة ولا تقتضيه البلاد غذاء غزيراً ولا ثياباً ثقيلة ولا داراً مرفهة . فقد كان اليوناني يتبلغ بحفنة من الزيتون وسمك السردين ويلبس نعلاً وقميصاً ورداء كبيراً . وكثيراً ما كان يخرج حافياً مكشوف الرأس وداره بناية منيعة ليست من المتانة بحيث يدفع اللصوص عن دخولها بثقب حائطها ولا له من الاثاث غير فراش وبعض لحف وبضع اوان جميلة ومصباح وكانت الجدران خالية من الزينة مبيضة بالجير « الكلس » ولا يأوي الى الدار الاّ آونة النوم فقط .

بلاد اليونان الاصلية

اصل اليونان — كان اصل الشعب الساكن في هذه البلاد الجميلة الضيقة النطاق من

الجنس الآري انسباء الهنود والفرس جاؤا مثلهم من جبال آسيا . ونحن نسي اليونان تطواف اجدادهم الطويل فكانوا يقولون انهم ولدوا من التراب كالصراصير . بيد ان لغتهم واسماء اربابهم لم تترك مجالاً للشك في اصلهم . وكان اليونان الأول كسائر الآريين يقتاتون باللبن ولحوم القطعان و يسيرون مدججين باسلحتهم وهم ابداً على قدم القتال ينضمون قبائل وفصائل تحت إمرة بطاركتهم .

اساطيرهم — جهل اليونان اصولهم كسائر الشعوب القديمة فلم يكن لهم علم بمنشإ اسلافهم ولا بالزمن الذي توطنوا فيه ارض يونان ولا بشيء من اخبارهم واعمالهم فيها . وان حفظ ذكر الحادثات الطارئة كما وقعت ليتوقف على اعداد الاسباب لها ومن اسبابها الكتابة . غير ان اليونان لم يعرفوها الاَّ حوالى القرن الثامن (ق . م) ولم يكن لهم واسطة لحساب السنين ثم اتخذوا بعدُ طريقة حساب السنين اعتباراً من المهرجان العظيم الذي كانوا يحتفلون به في اولمبيا كل اربع سنين وتدعى هذه المدة الفترة الاولمبية وقد وضعت الاولمبية الاولى عام ٧٧٦ فتسلسل تاريخ اليونان منذ ذاك الحين ولم يتصل بما وراء ذلك . ومع هذا فقد نقلت اساطير كثيرة عن هذه المدة الاولى في البلاد اليونانية وخصوصاً قصص قدماء الملوك والابطال الذين كانوا يعبدونهم كأنهم نصف ارباب وهذه الاقاصيص مشوبة بحكايات يتعذر الالمام بما فيها من حق وصدق فقد ذكروا في آثينة ان الملك الاول المدعو سكروبس كان نصفه ملكا ونصفه حية وذكروا في ثيبة ان كادموس مؤسس المدينة جاء من فينيقية للبحث عن اخت اوروبا التي خطفها ثور وكان قبل ذينك وزرع اضراسه فنبتت منها مقاتلة ومنهم تناسلت الامرات الشريفة في ثيبة وزعموا في مدينة ارغوس ان اصل الاسرة المالكة من بيلوبس وكان اعطاها المعبود زيوس كتفاً من العاج للاستعاضة عن كتفه التي اكلتها احدى الارباب . وهكذا كان لكل بلد اساطير يتلونها و يتناقلونها وظل ابناء يونان يذكرونها الى ما بعد ويثبتون لابطالهم القدماء نصيباً من روح الربوبية مثل ابطالهم برسي وبيليروفون وهيراكليس وتيزي ومينوس وكاستورس وبولوكس وميليا كرس وادينس ومعظم اليونانيين بل ان الطبقة المثوّرة منهم اتخذوا هذه التقاليد حقائق لا تزاع فيها الاَّ قليلاً . تلقوها على نحو ما تؤخذ الحادثات التاريخية اخبار الحرب بين ابني اديبس ملك ثيبة وحملة الارغونوت التي سافرت في طلب جزة الكبش التي قام بحراثتها ثوران لما ارجل من فلز تقذف النار من افواهها .

حرب طروادة — اشهر هذه الاقاصيص كلها حروب طروادة وهي اوسعها بيانا وتفصيلا فيروى انه كان نحو القرن الثاني عشر مدينة غنية ذات سطوة اسمها طروادة وكانت الحاكمة

الحكمة على شاطئ القارة الآسياوية فجاء احد امراء هذه المدينة واسمه باريس الى ارض يونان وسبى هيلانة حليلة منيلاس ملك اسبارطة فاتفق اغاممنون ملك ارغوس مع سائر ملوك اليونان وانفذوا لحصار طروادة جيشاً يونانياً على اسطول مؤلف من الف ومائتي سفينة فدام الحصار عشر سنين اذ كان الرب زيوس راضياً عن الطرواديين عاقداً النصر بالويتهم. ولقد اشترك مقاتلة اليونان كافة في هذا الحصار فقتل هكتور رئيس المدافعين عن حياض طروادة بيد اشيل وكان اجمل اليونانيين خلقة واشجعهم نفساً وجرّ جثته حول المدينة. فاتل اشيل بسلاح الهي وهبته اياه امه ربة البحر ثم هلك بسهم اصابه في عقبه. حتى اذا يئس اليونان من الاستيلاء على المدينة بالقوة عمدوا الى الحيلة فاوهموا انهم ازمعوا الرحيل وتركوا وراءهم حصاناً ضخم الجثة من خشب اختبأ فيه زعماء الجيش فاخذ الطرواديون هذا الحصان وادخلوه مدينتهم فلما جن الليل خرج القوّاد منه وفتحوا ابواب المدينة لليونان فحرقت طروادة وذبح الرجال واستعبد النساء.

ولما قفل زعماء اليونان من غزاتهم هبت عليهم العاصفة فتمزق بعضهم في البحر وقذفت الانواء بفريق منهم الى شواطئ بعيدة وكان من حظ عولس اكثر هؤلاء الزعماء جرية ودهاء واطولهم يداً في كيد المكايد ان قضى عشر سنين تتقاذف به البلاد حتى ادت به الحال ان فقد سفنه جميعاً ونجا من الغرق برأسه.

وبعد فقد كان الاعتقاد بحرب طروادة شائعاً في القرون القديمة شيوع الاخبار الثابتة. فزعم القوم ان غاية الحصار كانت سنة ١١٨٤ وحددوا مركز تلك المدينة. وقد خطر للسيو شيلمان من علماء الآثار سنة ١٨٧٤ ان يحفر محل هذه المدينة فاقتضى له ان يزيل انقاض عدة مدائن منضدة بعضها فوق بعض فعثر على عمق خمسة عشر متراً في اعمق طبقة من تلك الانقاض على آثار مدينة حصينة استحالت رماداً وظفر في خرائب اهم تلك الابنية بصندوق مُلِيء بالحليّ من ذهب سماه كنز بريام. وكان ثمت نقش وكانت تلك المدينة التي ظهر سورها كله صغيرة حقيرة وعثروا فيها على عدد كثير من الاصنام الصغيرة الرديئة الصنع والوضع وهي تمثل ربة لها رأس بومة (وعلى هذه الصورة كان اليونان يمثلون الربة بالاس) ومع كل هذا فليس ثمت دليل يقوم على ان هذه المدينة الصغيرة دعيت باسم طروادة قديماً.

ميسينيا — ورد في الاساطير اليونانية ان الملك اغاممنون الذي كان قائد الحملة اليونانية على مدينة طروادة كانت عاصمته مدينة طروادة وان زوجته قتلته عند عودته من هذه الغزاة ودفن بالقرب من قصره. ولقد عرف اليونان مكان مدينة ميسينيا لانها كانت

مأهولة الى القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال الى اليوم حول الجبل سور من الصخور الضخمة مصفوفة بعضها فوق بعض بدون ملاط يلحم بين اجزائها وتخنها خمسة امتار وكان اليونان يدعون هذا السور الحيطان السيكلوبية اعتقاداً منهم بان الجبابرة سيكلون قد اقاموا بنيانها ورفعوا قواعدها . ويدخل الى هذا السور من باب علوه زهاء ثلاثة امتار مؤلف من ثلاثة صخور هائلة وفوقها عمود بين اسدين منقوشين وهذا هو باب الاسود

ولما اكتشف شيلمان سنة ١٨٧٦ مدينة طروادة عزم ان يبحث عن قبر اغاممنون في ميسينا وكان الحفر قد جرى فيها غير بعيد عن سطح الارض فحفر شيلمان في التراب حتى وصل الى الصخر فلما كان على عشرة امتار من العمق عثر على ستة قبور فيها سبع عشرة جثة مع كمية كبيرة من الحلي الذهبية واساور وعقود ودبابيس وتيجان وسبعمائة سفيقة « ورقة ذهب » وزهاء مائتي سيف وخنجر مع نصال مموهة بالذهب والفضة . وكان على وجوه بعض الجثث برقع من السفيقة وكانت هذه القبور على ما ظهر مدافن امراء ميسينا .

ومنذ ذاك العهد اكتشف الباحثون في كثير من انحاء اليونان اشياء كثيرة ومنها اواني خزفية وحلي تشبه خزف ميسينا وحليها وقد عثر في بعض الاحيان بين هذه الدفائن على حلي مصرية من عهد الدولة التاسعة عشرة فاستنتجوا من ذلك بانهُ كان في يونان منذ الزمن العريق في القدم (بين القرن الثامن عشر والخامس عشر ق . م) ملوك اصحاب شوكة يستطيعون معها انشاء مدن حصينة ذات غنى متوسط وتيسر لهم به ان يكنزوا الكنوز ويستصنعوا الآثار النفيسة وهذا ما دعي بالتمدن الميسيني .

اشعار هوميروس — ان القصيدتين المنسوبتين للشاعر هوميروس وهما الالياذة التي ذكرت فيها حروب اليونان ورجولية اشيل امام طروادة والاوذيسية التي جاءت فيها حوادث عولس بعد سقوط طروادة . هاتان القصيدتان هما اللتان اذاعتا في اطراف العالم اجمع سقوط مدينة طروادة . وقد حفظتا قروناً دون ان يكتبا فكان المغنون الذين ألفوا الترحل يستظهرون ابياتاً طويلة منها وينشدونها في الاعياد . وفي القرن السادس امر احد امراء آثينة واسمه بيزيستراث ان تجمع القصيدتان وتكتبا فاصبحتا بعد وما زالتا ابداً اجل الآداب اليونانية العجيبة المطربة . يقول اليونان ان مؤلفهما هوميروس كان احد ابناء يونان من مدينة ايونية وعاش نحو القرن التاسع او العاشر ويمثلونه على صفة شيخ ضرير فقير يهبط ارضاً ويصعد ارضاً وتنازعت سبع مدن شرف نسبته اليها تدعي كل منها انها مسقط رأسه وقد وقع التسليم بذلك تقليداً بدون مناقشة فيه . وفي اواخر القرن الثامن عشر قام احد علماء الالمان واسمه فولف وابان بعض نقض في هاتين القصيدتين اداه ان

يجزم بانهما ليسنا من نظم شاعر واحد ولكنهما كتاب مؤلف من مقاطيع لشعراء مختلفين وقد حمل اهل العلم على هذه القضية حملات منكرة وهم بين مثبت لها تماماً ومنكر لها تماماً وظلوا مدة نصف قرن يتنازعون في وجود هوميروس او عدمه وما زال فريق اهل العلم الى اليوم على ان هذه المسألة متعذر حلها . ومن المؤكد ان هاتيه القصائد قديمة العهد جداً وربما كانت من القرن التاسع . الفت الالياذة في آسيا الصغرى وربما تألفت من مجموع قصيدتين خصت احداهما بحروب طروادة وثانيتهما بحوادث اشيل اما الاوذيسة فانها على ما يظهر من نظم شاعر واحد . ولكن ليس ثمت من دليل يقوم على انها من نظم مؤلف الالياذة بعينه .

اليونان على عهد هوميروس — يتعذر علينا ان نوغل في تاريخ اليونان الى قرون بعيدة . واشعار هوميروس اقدم مستند بشأنهم . ولما نظم هذا الشاعر منظومته نحو القرن التاسع قبل المسيح لم يكن لبلاد اليونان اذ ذاك اسم يطلق على سكان اليونانية قاطبة فسماهم هوميروس باسم قبائلهم الاصلية ويظهر انهم كما وصفهم قد نجحوا منذ غادروا آسيا فعرفوا حرث الارض وبناء المدن الحصينة وتألفوا شعوباً صغيرة . واطاعوا ملوكاً لهم وكان لهم مجلس شيوخ ودار ندوة وقد فاخر اليونان بحكومتهم واحتقروا الشعوب النازلة بقربهم لانهم كانوا دونهم فدعوهم البرابرة . ولقد صرح عولس بخشونة السيكوليس بقوله : (ليس لهم قواعد في العدل ولا اندية يتشاورون فيها وافرادهم يحكمون نساءهم واولادهم بالذات ولا يعنى بعضهم ببعض) ومع هذا فقد كان اليونان الى ذاك العهد نصف برابرة فلم يعرفوا الكتابة ولا النقود ولا تطريق الحديد وقلما كانوا يجرأون على ركوب البحر وتجشم اخطاره ويزعمون ان الغول سكن جزيرة صقلية .

المترجمات وحكم المترجم فيها

يتوقف النقل من لغة غربية الى لغة شرقية على امور منها احاطة المترجم بالموضوع احاطة تامة ومنها تمكنه من اللغتين او من اللغة التي يترجم اليها اكثر من اللغة التي ينقل عنها وقد جرت عادة النقلة والمترجمين في هذا اللسان قديماً وحديثاً ان ينقلوا بالمعاني كما ينقلون بالالفاظ (١) والنقل بالمعنى اعذب واسلس لان المترجم ينشيء جمله على مناحيه و يؤلف كلامه بحسب تسلسل افكاره والترجمة باللفظ اي نقل كل كلمة بما يرادفها في اللغة المنقول اليها هي من اشق الاعمال وقلما يجيد فيها الا افراد . ولذلك رأينا اكثر الناقلين يختارون طريقة النقل بالمعنى ولكن المرء يضطر في بعض الموضوعات الى النقل بالحرف الواحد خصوصاً اذا كان المنقول عنه عالماً كبيراً او صاحب رأي ونحلة يجب الناقل ان يطلع من ينقل اليهم على فكر المنقول عنه على علاته بدون زيادة فيه او نقص منه مخافة ان يصدق عليه المثل الطلياني القائل (ان المترجم خائن) واي خيانة اكبر من نقل اقوال صاحب نزعة او مذهب محرفة مبتورة وان ينسب اليه مالم يقله او ينقص من اقواله ما لهُ بذكره مأرب وربما لا تتسدد مرامي كلامه الا بتلك الجمل او المعاني التي لا يحفل المترجم بنقلها ولا يتعنى بتصويرها .

من اجل هذا ترى اهل الامانة من المعانين لصناعة القلم قد يحتفظون بما يكتب غيرهم وينقلونهُ لمجرد الاطلاع ولو ادى بهم الى الخروج عن سنن البلاغة وخالف ما في اعتقادهم فكل ما يأتي بهِ المترجم والحالة هذه لا يورده وهو مسئوول عن مكانه من الصحة . ولو قصد الناقل ولا سيما في الصحف الدورية العلمية او اليومية السياسية ان يملق على كل فكر ينقله عن غيره او يحذف كل جملة لا توافق ما وقع في نفسه لضاع الغرض المقصود والوقت الثمين . واذا فعل فيكون كمن يحاول ان يحيل كل فكر الى فكره وان يعبث باكثر المقاصد بنسجها على طريقته و يقضي على القاري ءاذ ذاك ان يسمع نغمة واحدة تملها اذنه مهما كانت جيدة التوقيع والتلحين

ومن ثم ترجمت الى العربية في زمن الخلفاء الذين كان لهم ولوع بالعلوم مؤلفات كثيرة كان الغرض من نقلها مجرد معرفة آراء اربابها ككتب النحل والملل والسحر والطلاسم وماشاكلها ولا يلتفت الى ما يراه كثير من الاغمار من ان كل ناقل مأخوذ بتبعة ما ينقل فان هذا مما لا يقول به احد من اهل العلم . ولقد رأينا كثيراً من فحول العلماء ألفوا في الملل والنحل وذكروا رأي كل فريق مشفوعاً بادلته ولم يتصدوا لنقد ذلك مع مباينتهم له اعتماداً على ان لرد تلك الشبه كتباً خاصة يرجع اليها من يعنى بذلك .

(١) المقتبس ج ١ ص ٥٥٨ وص ٦١٦

سير العلم

تربية الازهار

كان اخترع احد الباحثين في كوبنهاغ طريقة لتربية الازهار بواسطة المواد المخدّرة فتناول اختراعه هذا جماعة من ارباب الزراعة في فرنسا واكملوه وطريقتهم ان توضع النباتات وهي جافة على طبقة من الرمل الناشف في صندوق يمكن اغلاقهُ اغلاقاً محكماً ويعلق على غشاء الصندوق انائه يلقى فيه الاثير من ثقب ليسد بسرعة وكلما تبخر الاثير ينزل الى اسفل الصندوق ويغشي النباتات الموجودة فيه وبعد ٤٨ ساعة ترفع النباتات وتجعل في بيت اخر في هواء بليل وتربى كالعادة فتزهر اكمامها وازهارها بسرعة اكثر من سرعة النباتات التي لا تربى على هذه الصورة ويكون شكلها اجمل . فانك ترى البجلة (ليلك) المحضر على هذه الصفة يزهر ويورق في ثلاثة عشر يوماً على حين يقتضي لزرعه المعتاد سبعون يوماً ولا يأتي مثله وهكذا قل في سائر الازهار .

اعارة الكتب

منذ سبع سنين انشأ جماعة من الالمان في برلين خزانة كتب وغرفة للقراءة وهي تعير الكتب ليأخذها القارئ الى بيته ومحل عمله فكان مجموع ما اعارتهُ في السنة الماضية ثمانين الف مجلد استعار اكثرها الرجال وكان عدد القارئات واحدة في كل خمسة وعشرين مستعيراً ونصف ارباب الاستعارة عملة وربعهم من المستخدمين على اختلاف الطبقات وثلثا الكتب المعارة ادبية ونحو ربعها علمية ولم يفقد من هذه الكتب سوى تسعة . قالت المجلة الافرنسية ومن الغريب ان هذه المكتبة تستجلب ٥٣٩ جريدة ومجلة لفائدة قرائها على انك لا ترى في مكتبة الامة بباريز سوى خمسين من نوعها .

الطالبات في انكلترا .

أنشئت سنة ١٨٦٨ ، في كلية كمبردج في انكلترا مجالس يجتمع فيها النساء خاصة ليستمعن ما يلقى فيها من اصناف العلوم واذ تكاثر عدد المستمعات قضت الحال بان ينشأ لهن بيوت يأوون اليها وكان حضورهن اولاً على سبيل التسلية والتثقف فاصبحن الآن كالرجال يتعلمن ويزاحمنهم في الحضور الى تلك المدارس وصفوفها ويشتغلن في مكتبتها التي فيها اربعمائة الف مجلد وهي ثالث مكتبة في انكلترا بفخامتها واصبح القسم الخاص بهن من هذه الكلية الآن ينقسم الى ثلاث جمعيات الاولى دينية والثانية ادبية والثالثة سياسية واعضاؤها من

البنات وقد وصفت احدى المجلات صورة اجتماعهن ومناقشاتهن وما يصرفن فيه اوقاتهن من مفيد الاعمال والرياضات كالرقص والسباق والالعاب المختلفة وتمرين بعضهن على استعمال مضخات الحريق الجبن بعد الآخر حتى اذا كبرن وصرن ربات بيوت وحدث ان داهمت الدار بيتاً فمن يستطعن اطفاء الحريق من ايسر السبل

الصحة في يابان

قال رئيس اطباء الجيش اليابانى في تقرير له ان يابان بلغت ارقى درجات التقدم فان ثمانمائة الف جندي الذين عادوا مؤخرا الى بلادهم من ديار الحرب قد جرى تطهيرهم على الاصول الصحية فكان الجندي ينزع ثيابه كلها ويضعها في كيس ويستحم في خابية مملوءة بالماء الحار ثم يلبس قميصاً ويمشي قليلاً في الشمس ريثما تدخل البسته في المستحم الخاص بها وكذلك تطهر اسلحته بامرار بخار فورمول عليها وقد طهرت حتى الخواتم التي يلبسها الجنود واعطوا اوراقاً مالية جديدة بدل الاوراق التى كانوا يقبضونها زمن الحرب مشاهرات لهم . وقد دامت هذه العملية ٧٥ دقيقة لكل جندي وبهذا لم يجلب الجيش الياباني معه الى بلاده امراضاً وبيلة واوبئة فاشرة كان يأتي بها الجنود معهم من ديار الحرب ايام كانت الامم لا تعتقد بالجراثيم والنسم

حياة العميان الطبيعية

الف احد علماء براغ كتاباً مهماً درس فيه احوال العميان وحواسهم فقال ان حاستي اللمس والسمع تفيدان العميان فائدة كلية لا كما كان يظن على وجه عام وليس ذلك لان هاتين الحاستين قويتان فيهما بل لانهم يحسنون استعمالها والانتفاع بهما وحاسة الشم تهديهم لامور لا يهتدون اليها باللمس اما حاسة الذوق فيهم فلا تختلف عما هي عليه عند المبصرين وللاعمى حاسة سادسة وهي شعوره بالمصاعب والحوائل وهي حاسة مؤلفة من السمع واللمس وهو ذو ذاكرة قوية لانه يقضي عليه ان يمرن نفسه منذ صغره على حفظ ما ينقل اليه ولا يزال يستظهر ما يسمعه في ليله ونهاره وهذا التمرين الدائم لذاكرته يمكنه من اتقان الموسيقى . وقد ترى ذاكرته في الغالب من اعجب الذاكرات في البشر .

الصدأ

تبين من الكشف الاخير ان الصدأ يفعل فعلاً شديداً لم يكن من قبل معهوداً ففي انكلترا يخرب في اليوم ثمانية عشر طناً على طول خط حديدي واحد وفي اميركا يأتي بضرر اكثر من ذلك على السكك الحديدية وقد كانوا يعالجون الصدأ بطلاء الحديد ولكن

الباحثين الآن بحثوا في طريقة تقي الحديد من الصدإ فلا تفعل فيه المياه ولا غيرها من الرطوبات وقد وفقوا الى اتقانها.

الصلع

اختلفت الآراء في الصلع فقال بعضهم بانهُ علة طفيلية معدية وقال غيرهم انهُ نتيجة بعض امراض واوجاع وارتأى آخرون بانهُ نتيجة السهر في اجهاد العقل بامور صعبة وعاقبة من عواقب الهموم والاضطرابات . وقد تبين لاحد اساتذة مدرسة الطب في دتروا من ولاية مشيغان الاميركية بان الصلع يحدث من فساد استنشاق الهواء ولا يمكن التخلص منهُ الاّ باحسان استنشاق الهواء الجيد فان الهواء الفاسد في الرئتين اذا لم يستنشق كما ينبغي يسري كما يسري السم في الدم ولا تكون تغذية بصلات الشعر الا قليلة او فاسدة. وقد جرب الدكتور المشار اليه هذه القضية في ألوف من الاشخاص فثبت لهُ رأيه بالاختبار وقد جرب ان ينشق هواء نقياً لجماعة من الصلع او المعرضين لهُ فبعد اسبوع من استنشاقهم له من اعلى الصدر نشطت بصلات الشعر واخذت تنمو ولم تمت على هذه العملية عشرة اسابيع حتى صارت لهم شعور اثيثة . قالت المجلة التي نقلت هذا الخبر انهُ انشق الكلاب والدجاج والحمام هواء فاسداً ففقدت ريشها وشعرها.

اندية الانكليز

زار احد المفكرين اندية لندن فكتب عنها مقالة ضافية في احدى مجلاتها كانت في الحقيقة وصف الحياة الانكليزية واختلاف تغييراتها المتتابعة فمما قالهُ : الاندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والابدال الذي طرأ على الهيئة الاجتماعية والاخلاق على توالي القرون ولطالما مرت فيها اجيال من الناس ذكروها فذكرتهم واقدم اندية لندرا النادي البحري الملوكي أُسس سنة ١٦٧٤ وانشئ غيره في النصف الاوّل من القرن السادس عشر وأُسس نادي طرف الغار سنة ١٨٠٥ الى غير ذلك من الاندية التي كان ولا يزال يختلف اليها العالم والمفكر والموظف والسياسي والبحري واهل جميع الطبقات .

بلاد الزنج

كتب المسيو لوسين بوفا في مجلة العالم الاسلامي بحثاً وصف فيه سكان البلاد الساحلية من افريقية الشرقية ولغتهم وعاداتهم وذكر لمحة من تاريخه وجغرافيتهم فمما قالهُ ان الشاطئ الشرقي من افريقية كان معروفاً عند الملاحين الفينيقيين واليونانيين في البحر الاحمر وان قد كانت لهُ صلات تجارية مع الخليج الفارسي وعمان والشاطئ الغربي من الهند قبل الهجرة

بزمان وقد ذكر بطليموس الجغرافي في القرن الثاني للميلاد جزءاً من البلاد في جنوبي الحبشة سماه « زانجير » ثم دعي الزنوج النازحون منها بالزنج وهم يختلفون عن بقية الشعوب الافريقية كالنوبيين والحبش بشفاههم المقلصة وانوفهم المفلطحة ثم كثر ذكرهم في تاريخ الاسلام في القرن الثاني بعد ان انتشر الاسلام بينهم ولم تكن العلائق بين بلاد الزنج والممالك الاسلامية مقصورة على جلب الرقيق منها بل انه كان من تأثيرها دخول الاسلام اليهم ولم يكن انتقال العرب للاسلام ليغير شيئاً من نوع الصلات التجارية التي كانت بينهم وبين بلاد الزنج قبل البعثة المحمدية فدخل الاسلام اليهم على يد حمزة اخي الخليفة عبد الملك سنة ٨٦ واستنتج الكاتب بان عمان والخليج الفارسي كان لهما شأن عظيم في الاستعمار الاسلامي منذ القديم قال وقد تعاقبت الاسماء الكثيرة على هذه البلاد ومنذ عهد ابن بطوطة اخذ يزول عنها اسم بلاد الزنج ففي شماليها شاطيء الصومال ثم السواحل وتعاقب الحكم عليها الترك فالبرتغال فجماعة من اهلها مثل سلاطين مسقط وزنجبار وسنة ١٨٩٠ تقاسمت كل من انكلترا والمانيا هذه البلاد فاخذت الاولى الساحل الشمالي والثانية الجنوبي فصارت زنجبار والجزائر الملاصقة لها في منطقة نفوذ انكلترا . ويقدر نفوس هذه البلاد بزهاء مليون وخمسمائة الف نسمة منهم مليون واربعمائة الف من الوثنيين والباقون عرب وايرانيون وزنوج واوروبيون وقد اصبحت اللغة الساحلية مزيجاً من العربية والفارسية وبعض الالفاظ الافرنجية واصل لفتهم لغة البانتو وقد ارجعها الباحثون في اللغات الى ثقاسيم كثيرة فقالوا انها ١٦٨ لغة و٥٥ لهجة واللغة الساحلية مستعملة بين المسلمين خاصة بحيث اصبحت لغة التجارة في افريقية الشرقية والوسطى . وختم هذا الفصل بقوله ان جوهانستون قال منذ عشر سنين ان اللغة العربية تضمحل في داخلية بلاد الزنج من زامبيز الى النيل الابيض وان اللغة الساحلية تقوم مقامها وذكر لهم عادات لا تختلف عن اكثر عادات المسلمين في معظم البلاد ولا سيما البادية منها .

مداواة المسلولين

في احدى مجلات كوبنهاغ بحث في معاملة المانيا والدانيمرك للمسلولين قال فيه كاتبه ان الالمان في مقدمة الامم التي انشأت المستشفيات الكثيرة لمحاربة هذا الداء وتليها الدانيمرك . ويقيم المسلولون في المصاح بالدانيمرك من عشرة اشهر الى اثني عشر شهراً اما في المانيا فيقيمون ثلاثة اشهر ولكن المصابين بهذا الداء في الدانيمرك يشتغلون في المصاح او المستشفيات اشغالاً يستطيعونها وتدفع حكومة تلك البلاد ثلاثة ارباع النفقات التي تنفقها هذه المستشفيات والربع الآخر تدفعه المحلات والولايات .

علم الجراثيم

كان من نتيجة البحث عن الجراثيم في الممالك الغربية ان احدث فيها خوفاً من عاديتها على اختلاف انواعها وسرى من ذلك الى بلاد الشرق عدوى التخوف منها كما هو الآن في الغرب . وما برح الاطباء يحذرون الناس من اخطار الميكروب على اختلاف انواعه والحق معهم في ذلك فمن الضرورة تحذير الخلق من الاخطار التي تلحقهم من قلة العناية الصحية فاذا انتشر مرض الجدري لا بدّ للطبيب من ان ينصح باعادة التلقيح ولكن ينبغي ان يلاحظ ان المسافة تختلف بين ما يقال له احتياط وما يقال له خوف فالاعتدال مطلوب على كل حال وانا لنرى ارباب المزاج العصبي يعيشون الآن في هلع دائم على حين كان الواجب عليهم ان يكتفوا بالحذر والاحتياط فبعضهم يقول ابتعدوا عن التقبيل وعقموا اللبن وغيره من المشروبات مخافة ان ينقل جراثيم السل الى متناولها وان يبتعد المرء عن مصافحة غيره لئلا يأخذ الجراثيم التي تكون نازلة على الجلد ويوصون ان لا ينزل المرء في سياحته في احدى الفنادق لئلا يأخذ جراثيم مرض ينتقل اليه بواسطة الفراش واللحاف وعلى من اضطر ان يركب القطار ان لا يمس المخدات والمتكآت والستائر . وقد كثر التخوف من الميكروب حتى قام احدهم في نيويورك واخترع آلة صغيرة وهي عبارة عن انبوب صغير يحمله المرء تحت طرف ثيابه ويملأوه بسائل مطهر فتر بالعروة عقدة تناط بالانبوب الصغير فتتألف منها آلة مبخرة فاذا تنهد المرء قليلاً يبدأ التبخر فيستعمل المرء هذه الآلة على هذه الصورة كلما اجتمع في الشارع مع شخص كما يستعملها لتبخير كل ستار او قطار او دثار او شعار او جدار يشتبه في امره . قالت المجلة الباريزية ولا يبعد ان يأتي يوم يبني فيه المهندسون بيوتاً ومساكن تكون بأمن من الجراثيم الضارة وقد بدأ القوم في اميركا يجربون تجربات من هذا القبيل بانشاء غرف كلها من الزجاج ولا ينبغي الاستهزاء بهذه الفكرة فان الطلبات متوالية في ذلك .

مطبوعات ومخطوطات

دائرة المعارف الاسلامية

ستصدر عما قريب دائرة المعارف الاسلامية التي الفها الاستاذ شوتسما من اساتذة كلية ليدن بمعاونة جماعة من علماء المشرقيات مثل هوار وفولرس وبرتولد وزترستين وهوروفيس وبكير ومارسي وباسي وغيرهم من الهولانديين والفرنسويين والالمانيين والنمسويين والسويديين وقد ذيلت كل مقالة بتوقيع كاتبها على عادة الاوروبيين في موسوعات العلوم عندهم وقرأنا في مجلات العلوم الشرقية ثناء كثيراً على هذا العمل النافع وتدقيق كتابها في المسائل التاريخية والاجتماعية الاسلامية . وانا نعرف بعض من اشتركوا في تأليف هذه الدائرة النافعة وهم متمكنون من آداب العرب وتاريخهم مطلعون على ماضي الاسلام وحاضره وما منهم الا من طاف كثيراً في اقطار المسلمين وعاشر اهلها واطلع على احوالها . فلاجرم ان يجيء مما تخطه انامله مثال التحقيق وانموذج الروية والبعد عن الغرض .

عرب سورية قبل الاسلام

المسيو دوسو عالم من اهل الاختصاص في تاريخ سورية عرفناه منذ بضع سنين ايام رحلته الاخيرة الى بلاد الصفا وهو يكاد اليوم يكون حجة بلغة الصفا وتاريخها . وكتابة الصفا لم تكن معروفة قبل خمسين سنة فحلها جماعة من علماء المشرقيات وانتهت الرياسة فيها لصديقنا دوسو . واللغة الصفوية في اللغة العربية واهل الصفا هم اول النازحين الى سورية وان جاء بعدهم بعض القبائل الا ان تاريخ اولئك قد عرف اكثر من غيرهم من اهل سورية الراحلين بما اكتشف من آثارهم ومصانعهم ونقوشهم المزبورة على الاحجار وقد كان عدد ما عثر عليه ١٧٥٠ كتابة اكتشف نصفها المسيو دوسو والمسيو ماكر وهي مهمة من حيث الحياة الاجتماعية لامة بدوية رحالة وقد نشر هذه الآونة كتاباً في عرب سورية قبل الاسلام ومما قاله فيه انهُ ينبغي تصحيح الافكار الشائعة والاغلاط التي يقع فيها بعضهم بشأن العرب فان العرب ليست على اطلاقها من اهل الجزيرة العربية بل ان سكانها الرحالة في الجنوب من اصول اخرى و ينبغي ان يطلق اسم العرب على سكان اواسط جزيرة العرب وشماليها وعلى القبائل الرحالة التي تطوف بادية الشام لان هذه البلاد عربية صرفة والتنقل كل سنة يأتي هذه البلاد بقبائل من نجد وكل قبيلة تعقد مع القبائل الرحالة الاخرى عهوداً بسمونها « خوة » وتقضي بينها الربيع . والتنقل قديم يرد عهده الى اوائل التاريخ

المسيحي . قال ان الصفا غير قابلة للسكنى لانها ذات براكين ولكن في جوارها بلاداً تسكن خصيبة ذات مياه قال فيها ياقوت الحموي انها اصل البلاد الصفوية . وقال ان اللغة الصفوية هي احدى اللهجات العربية وليست فينيقية . وذكر ان الآثار التي عثر عليها ليست ذات شأن من حيث علاقتها بالدين لان المسلمين عفوا آثار الجاهلية الاولى فلم يبقوا منها اثراً وقال ان الصفويين كانوا يذكرون اسم « الجلالة » قبل الاسلام وقبل ان يختلطوا بالرومانيين وان العرب لم تفتح تلك البلاد عفوا بل ان اختلاطهم بالأمم المجاورة قبل الاسلام هيأ لهم سبل الفتح وان الرومانيين لم يحاولوا ان يصدوا عرب البادية عن التنقل بل كانوا يعاملونهم بسلام لئلا تكدر كأس الراحة .

ديوان حافظ

محمد حافظ افندي ابراهيم من اعاظم شعرائنا الافراد نبغ في البلاغة فاستولى على غاياتها وله نمط خاص به في الانسجام وجودة التصوير في الموضوعات التي ينظم فيها معظم قصائده على حين لا يقع منها لغيره الا الابيات الفذة النادرة فشعر حافظ هو الذي نقرأ فيه روح العصر . شعر شاعره بحركة العقول والاجتماع فنظم فيه وابدع . ومن اعظم حسنات حافظ في شعره انه ينقحه ويشذبه فلا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً . فان نظم في شهر قصيدة ينظمها غيره في يوم ولكن قصيدة الشهر تبقى وتخلد ويتناقلها الناس ويستظهرونها وقصيدة اليوم تذهب بذهابه . وقد نشر الآن الجزء الثاني من ديوانه في ١٣٦ صفحة صغيرة الجرم ولكنها كبيرة النفع ومعظم ما فيه قصائد اجتماعية في شؤون عامة تهم الامة قال على لسان اللغة العربية .

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... ونديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم اجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم اجد لعرائسي ... رجالاً واكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة ... ولتنسيق اسماء لمخترعات
انا البحر في احشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وان عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فانني ... اخاف عليكم ان تحين وفاتي
ارى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عز اقوام بعز لغات
اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ايطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً عليتم ... بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله في بحر الجزيرة اعظماً ... يعز عليها ان تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الاعظم النخرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة
واسمع للكتاب في مصر ضجة ... فاعلم ان الصائحين نعاتي
ايهجرني قومي عفى الله عنهم ... الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الافاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الالوان مختلفات
الى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فاما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
واما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بممات

وقال من قصيدة في غلاء الاسعار

ايها المصلحون اصلحتم الار ... ض وبتم عن النفوس نياما
اصلحوا انفساً اضرّ بها الفقـ ... ـر واحيا بموتها الآثاما
ليس في طوقها الرحيل ولا الجـ ... ـدّ ولا ان تواصل الاقداما
تؤثر الموت في ربى النيل جوعاً ... وترى العار ان تعاف المقاما
ورجال الشآم في كرة الارض ... يبارون في المسير الغماما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فانوا ... موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العيـ ... ـش ويبرون للنضال سهاما
وبنو مصر في حمى النيل صرعى ... يرقبون القضاء عاماً فعاما
ايها النيل كيف تسمي عطاشاً ... في بلاد رويت فيها الاناما
يرد الواغل الغريب فيروى ... وبنوك الكرام تشكو الأواما
ان لين الطباع اورثنا الذ ... ل واغرى بنا الجناة الطغاما
ان طيب المناخ جرّ علينا ... في سبيل الحياة ذاك الزحاما

حياة الزوجين

هو كتاب ادبي اجتماعي يشتمل على آداب حياة الزوجين وما يجب على كل منهما نحو

صاحبه وعلى ما تضمنته اسفار الحكماء واحكام العلماء وقد بحث فيه مؤلفه عبد اللطيف افندي مصطفى في حالة البيوت والزواج المشروع المعقول ووصف اختلال احوال الخطبة والتربية والعادات السافلة بعبارات تشف عن ادب وقد درس الموضوع في مظان كثيرة فجاء مفيداً يشهد لمؤلفه بالفضل ويرجى منه عموم النفع

الدروس التهذيبية

عرب احمد افندي فوزي هذا الكتاب المفيد عن اللغة الانكليزية وهو على اسلوب في التأليف لم يؤلف في العربية يأتي بتراجم العظماء والعلماء باسلوب حكاية ويستطرد الى ذكر اعمالهم واختراعاتهم بحيث يتطلع القارىء الى ما تنطوي عليه القصة فيتعلم الافكار الصحيحة والحوادث التاريخية ويلمّ بسير المشاهير واحوال الاجتماع والآداب بدون ان يتعب او يمل كما وقع له في فصول الكتاب الجليلة مثل ضبط النفس وحياة معتدلة والمثابرة والشجاعة والاعتماد على النفس والتبصر والنظام والتواضع والصدق في العمل والحرية في القول والبحث عن الحق واختلاف الآراء وغيرها. الكتاب موضوع لاطفال تختلف سنهم بين العاشرة والرابعة عشرة ونرى انه يفيد الكبار من الرجال والنساء وحبذا لو حذا حذو معربه كل من يعرف احدى اللغات الاوروبيه فينقل الى العربية كتاباً او كتابين في حياته في ضروب العلم والادب زكاة عن علمه وحباً بنفع لغته وامته . والكتاب في ٣٥٠ صفحة صغيرة مطبوع طبعاً جيداً وثمنه قرنك واحد ويطلب من المكاتب الشهيرة فنحث على اقتنائه

مجلة الازهر

اصدر محمود بك زكي مجلة بهذا الاسم وهي علمية دينية ادبية تهذيبية تاريخية تبحث في المسائل العلمية وتدافع عن حق الازهر وعلمائه وتصدر مرة في كل اسبوعين وتحرر تحت ملاحظة بعض اكابر علماء الازهر وقيمة اشتراكها ثمانون قرشاً وللازهريين وطلبة العلم بارعبير وقد اشتبشرنا بهذه المجلة فلعل الازهريين يتمرنون بعد الآن على الكتابة والتأليف فان مدرسة فيها اثنا عشر الف طالب حرية بان تصدر باسمها مجلة تدوّن فيها آراء اهلها واميالهم وزبدة علومهم واذا كان في هذه المجلة الآن بعض امور تؤخذ عليها فان كثرة المران على العمل تجوده مع الزمن وما قط جاء عمل تاماً من يوم البداءة به فنرحب بالوصيفة الجديدة ونرجو لها طول البقاء

فجائع اليائسين

(تابع ما قبله)

— كنت وعدتني واخلفت وعدك وهيهات ان تثبت عليه

— اما قنعت وعذرتيني ؟

واخذت تفكر مترددة ان تكلفه بالطلاق المشؤوم الذي لا تود ان تسمع ذكره وهي تخاف ان لا يقبل فتخجل او يطلقها حباً بها وهو لا يريد ثم قالت بستجيل ان اكون زوجة ثانية واجتمع باعدى عدواتي او اتصور ان لي عدوّة في حياتي ولذلك ارجوك ان تعذرني اذا ابيت ان اجيبك الى سؤلك

— فان كان المانع لقبولك وجود شهيرة فهي طالقة ثلاثًا فكوني على ثقة من ان اجتماعي بها مرة اخرى ضرب من المحال

— ما كان يودي ان تطلقها ولكنه سبق منك فاعدك بالقبول وقد عفوت عنك وسامحتك بما بدر منك ونسيت كل خطيئاتك

— اشكر لطفك واحسانك ولم يبق امامنا من العقبات سوى قبول ابيك او اقناعه

— سأجد اليه وسيلة تضطره الى اجابة الطلب . وهنا تعانقا وتفارقا على امل اللقاء

واخذ سعيد يفكر بالسعادة ويؤمل بقربها وهيهات ! هيهات ! لان السعادة الحقيقية مفقودة وقد يظن المرء انه سعيد بالنسبة للشقي او يتظاهر بالسعادة :

(تعب كلها الحياة فما اعجب الا من راغب في ازدياد) ولكن الامانيّ تجعل الانسان يعيش في خيال السعادة فهذا سعيد ولد بالامل وعاش بالامل وسيعيش بالامل وصار يسبح في بحور الخيال . اخذ يؤثر البقاء في فراشه على الذهاب الى احسن سمر لينكر فيما استصير اليه حاله . فبينما هو يفكر في خيالاته اتاهُ خبر وفاة ابنه مع احد اقارب زوجته فطلب هذا منه ان يرسل بجهزه للدفن ولم يكن سعيد رأى ابنه فحدثته نفسه ان يرى صورته ولو كان ميتًا ليلتذ بالبكاء عليه ويقول انه كان لي ابن فارسل وطلب ذلك فوعدهُ الرسول وذهب فاخبر شهيرة وامها بما اراد فغضبتا ونادتا بالويل والثبور قائلتين ان هذا لا سبيل اليه واسرعتا بتجهيز الطفل وحمل الى الجبانة فاتى سعيد فوقف قرب الباب المشؤوم وارسل خادمه ليطرق الباب فصاحت النساء وشتمنه ولعنت الولد واباه ودعتا الله ان يلحق الاب بالابن فادرك من ذلك الصباح ان الميت ارسل الى الجبانة وسأل الجيران فاخبروه انه أُخرج وصلي عليه ثم اخذوه ليواروه التراب فذهب الى المدفن فلم يجد سوى حفرة الميت راجعين فسألهم عنه فقالوا انهُ

دفن واجره على الله فاخذهُ البكاء واسف اسفاً عظيماً . وبينا هو يكفكف عبراته اتاهُ طغمة الشحاذين فاحاطوا بهِ فمنهم من كان يقول « اسمعونا الفاتحة الى روح الميت » ومنهم من تسرع في تلاوة حزب من القرآن ومنهم من كان يقول « اعطنا من مال الله وتصدق عن روح ابنك » فما وسعه الا ان شتمهم وكدرهم بموارد ولكنهم ثبتوا واستعملوا القحة سلاحهم اذ اعتات نفوسهم السب والشتم واعياهُ دمه رياءً وامره بان يصرفه قطعاً صغيرة ويوزعه عليهم على السوية تخلصاً من سلاطتهم والحافهم فتركوه ولحقوا الخادم وكادوا يضربونهُ فرمى الريال وفرَّ امامهم يعدو مسرعاً فانقضوا جميعهم على الريال وانشبوا يترامون بعضهم فوق بعض فجرح احدهم وراح ينتقم من رجل بريء فقابله وانتصر له آخر وعلا الصياح فاتى الشرطي واخذ يضربهم بسوطهِ فمرّ بعضهم وقبض على الآخر فتناقهم الى المخفر واخذ الخادم فلم يتركهم حتى اخذ منهم ما يرضي خاطره .

طغمة الشحاذين في كل بلدة ضروب واشكال واكثرهم عدداً وارقامهم في الشحاذة والتفنن في الالحاح والالحاف « كلاليب » دمشق فلهم هناك رئيس يحكم على اعوانهِ من كل حي من احياء المدينة ومن وظيفة الاعوان اخبار الرئيس في اسرع وقت بموت ميت وتوزيع صدقة وهذا يعلم جميعهم فما هو الا ان يصطفوا حول جدار بيت الميت قبل المعزين ينتظرون خروج النعش ليمشوا حولهُ مهللين مكبرين بانغام خاصة بهم فيمدون الكلام ويغمغمون باشداقهم ويخرجون السنتهم . وللرئيس اجرة الاخبار يتقاضاها من كل فرد منهم حتى اذا دفن الميت يهجمون على اهله ويطلبون منهم اجرة التهليل والتكبير كأنهم دعوهم وقاولوهم على اجرة معلومة وقد يسمعونهم الفاظاً فظة ويحملونهم منة كأن يقولون لا يليق بمن ورث مبالغ من المال ان لا يتصدق عن روح مورثه كأنهم شركاء الوارث في ميراثهِ فيزيدونهُ غمّاً الى غمه

ولما رجع سعيد من الجبانة وفكر بانهُ خلص من اجرة الحضانة وحيل بينهُ وبين زوجه قوي امله وشكر ربه على ما ازال عنهُ من الغمة وذهب الى زيارة الباشا على حسب عادتهِ واخبرهُ بما وقع لهُ فاسف هذا لهُ ورقَّ لحالهِ وشعر بلزوم حمايته لأنهُ هو ولي نعمته ولامهُ على التأهل بهذه الزوجة ثم قال لهُ : ينبغي لك ان تفتش على زوجة توافقك

— لا يخفى على سعادة الباشا ان رفيقي اخو زوجتي هو الذي غشني بأختهِ وكان سيدي الباشا حينئذٍ متغيباً عن بيروت فلو كان هنا ما تزوجت الاَّ بعد استشارتهِ والآن اسعى في سبيل الزواج ولكني عزمت على ترك هذه المسألة لرأي مولاي

— سأفكر لك بزوجة حسنة وآمر الخانم لتبحث لك عن امرأة تليق بك .

فشكر فضله وقبل يده وبعد ان مكث هنيهة في حضرته استأذن بالانصراف الى داره

٧

ظلت جميلة وحيدة في المنزل واخذت تفكر وتقول الى متى وانا في حرمان من الزواج ؟ لست برادبة ولا يحظر عليّ التأهل وما يخيل لي اني اجد احسن واوفق من سعيد وحبي له شديد ولا اود ان اقترن بغيره فمن يطيق ان يتنحى من اتخاذه رفيقاً لي ؟ اذا كان اعتقاد ابي بالمناصب والمواقع وهو لا يعلم انه لا تمييز بين البشر بالفضائل ومكارم الاخلاق فارادته لا تمنعني عن ذلك ولست لامره طائعة على ان الشرع الشريف منحني حرية الزواج بعد البلوغ وها أنا ذا بلغت سن الرشد وطاعة الاب الذي ينكر الحقائق بضعف عقله وقلة علمه غير واجبة عندي اذا كان اولاده اعلم منه بمصالحهم واعقل منه واشل في تدبير شؤونهم وصيانتهم وانا اعلم من ابي ولا شك بمن يصلح لي ولكن الادب والكمال يضطرانه الى ان يرضى بزواجي ومن الحزم والعقل ان اسوقه الى ما اتمناه ولكن كيف اصل الى ذلك ؟ واخذت تفكر في وسيلة تحمل اباها على ان يبدي رأيه بزواجها من سعيد فجلست يوماً مع امها وذكرت سعيداً مادحة اياه من امرأته وصارت تمدح مكارم اخلاقه وتعظم مستقبله بعين أمها وتثني له زوجة ترتاح اليها نفسه وتطيب وكانت امها تصدق ما تقوله حتى حسبتها فقالت : اذا كان يريد الزواج فانا سأسعى له .

فتجاسرت حينئذٍ جميلة وقالت لو كان لي فكر بالزواج لما تزوجت سواه . وقصدت بهذه العبارة استطلاع طلع رأي أمها فقالت هذه نعم وانا أوافقك على افكارك ولكني ما زلت استغرب امتناعك عن الزواج وقد فاتك اوانه وانقطعت الرغبات فيك فالى م وانت على تصوراتك الغريبة ؟

— اتدرين متى ارضى بالزواج ؟ متى وفقت لكفوء يقوم بضروراتي ويعرف قدري ولا يتزوجني الا من اجل فضيلتي وانت تعلمين ان الذين طلبوني حتى الآن لم يقصدوا مني الا الانتساب لأبي ولا يخفى عليك ان الذي يطلبني من اجل ابي عند ما يتوفى والدي يهملني ولعله يطلقني او يتزوج مرة أخرى ويتركني حزينة ابد الدهر .

— ما زلت تلقين هذه المشكلات فمن اين لنا ان نأتيك بمن يوافقك على ما تنزع اليه نفسك ؟

— قد يوجد ولكنه لا يجسر احد على طلبي لعلمه اني ارد طلبه وهذا يصعب عليه ان يرد خائباً لعزة نفسه وشرف طبعه وكرم اخلاقه .

— هل تعلمين فتى بهذه الاخلاق ؟

— وانت تعلمينه

— من هو ؟

— سعيد

— لا اشك بمكارم اخلاقه وعزة نفسه ولكنه غير كفوء لك من حيث الشرف لان ابالك باشا وابوه كان جندياً وعائلته غير معروفة بين الناس وانجب العجاب رضاك به زوجاً

— لا محل للعجب هنا لان مكارم الاخلاق تقوم مقام شرف عائلته والشاعر يقول

لا تسأل اصلي وفصلي ابدا انما اصل الفتى ما قد حصل

واذا كان فقر عائلته يمنعك عن القبول فليس الفقر عيباً للمرء وشيناً ولا الغنى شرفاً للانسان. وخلاصة الامر كوني على يقين من اني اذا قصدت الزواج لا اتزوج غيره لانه هو وفق مرغوبي

— فهمت الآن ان لهُ في قلبك مكاناً والحب اراك اياهُ موافقاً على اني لا اطيق ان اذمه لاني لا اجد فيه من العيوب سوى فقره واني ناظر منزلة أسرته .

— قلت لك ان الفقر ليس بعيب واما انحطاط مكانته فمكارم اخلاقه تشفع بها ومع هذا كله فانهُ سيتولى منصباً عالياً يبلغ به مبالغ الاشراف وينال راتباً عظيماً يصبره في زمرة المنعمين المترفين .

— فان كنت ترغبين فيه زوجاً لك فصرحي بكلامك ولا حاجة الى براهينك .

سكوت واطراق في الارض

— فلو رضيت بهِ لكِ وشايعتكِ على فكركِ فهل تتصورين ان الباشا يرضى بذلك وهو غرس نعمتهِ وزيدي على ذلك ان لهُ زوجة اخرى

— انت قادرة على اقناع الباشا وارضائهِ واما زوجة سعيد فليس فيها كبير امر لاني على ثقة من انه يطلقها من اجل ابي

— من اين لي ان اقنع الباشا ليرضى بذلك ؟

— انت تعلمين كيف تفعلين

— دعيني الآن ريثما اجد فرصة مناسبة استرق فكر ابيك واعلم ان كان يمكن ذلك ام لا

***

وبعد ما خرج سعيد من منزل الباشا دخل هذا الى دائرة الحريم واخذ يظهر اسفه ويقول لا حول ولا قوة الا بالله . فسألته الخانم عن السبب فاخبرها بما جرى لسعيد وابنهِ فبكت لحاله واسفت عليه ثم قال لها : اني تعهدت لهُ بان أزوجهُ وان ارسلك للتمشي له على امرأة توافقهُ . فتجاسرت الخانم عندئذٍ وقالت : ان كنت تود ان تحميه وتريحهُ زوجهُ بابنتك فهو غرس نعمتك وقد نشأ بفضلك وفي ظلك وما هو في الحقيقة الا ابنك ولعلنا نتخذهُ ولداً فيكون لنا عوناً وسنداً

— لا انكر مزاياهُ واحبهُ كولدي ومنزلته عندي منزلة جميلة ولكن امتناع جميلة وكلام الناس يحولان دون ذلك على اني لست ممن يعدون الفقر انحطاطاً ومزرياً بالشرف ولا استنكف عن مصاهرته لان مكاني وشرفي يكفيانه

— كلام الناس ليس مما يحفل به العاقل في مثل هذا المقام لان العاقل البصير من لا يبالي بكلام لا طائل تحتهُ وقد يكفيهِ رضا الاخيار والاخيار لا يرون الفقر وجهل مكانة العائلة منافياً لمكارم الاخلاق وهم يرجحون الفضائل على كل مزية والمدح ما كان من الاخيار والذم ما كان منهم ولعل جميلة ترضى به لان امتناعها ناشئ عن عدم وجود قرين يوافقها على انها تمدح سعيداً في كل حين وتقرّ لهُ بالفضل

— وانا لا ابالي بكلام العامة ولا بكلام من انحطت افكارهم ولكن اذا رضيت انا بذلك فهل جميلة ترضى به

— فلنسألها — اذهبي واسأليها

***

دخلت على جميلة واخبرتها بما جرى بينها وبين ابيها ففرحت وقالت لا مهما يجب علينا ان نحتاط لئلا يفهم فيغضب وانت تعلمين حاله اذا اخذهُ الغضب ..

— اصبت بما فكرت . فماذا نعمل ؟

— اذهبي وقولي لهُ ان جميلة لا تخالف امرك ولكنها تلتمس منك مهلة تفكر في هذه المسألة الحيوية التي تحتاج الى امعان وزيادة استبصار

— هاءنذا ذاهبة وذهبت . فدخلت على الباشا واخذت تمدح جميلة على تروّيها وعقلها وكمالها ثم قالت : انها لا تخالف ارادتك وهي طوع امرك فيما تقضيه عليها ولكنها تلتمس منك مهلة يومين للتفكر في امرها ثم تخبرنا سلباً او ايجاباً

— اخاف ان تصر على عنادها وانا اود ان ازوّجها في حياتي لتفرح بها فقولي لها اني امهلتها يومين فذهبت وخبرتها ففرحت بنيل المراد وبشرت سعيداً بواسطة خادمتها ففرح هذا وظن ان السعادة العظمى لاحظته عيونها واخذ يفسرها و يقلبها على وجوه آملاً ان تكون تلك السعادة مكافأة لما عاناهُ من قبل وصار يسبح في ظلمات الخيال وصرت لا تراه الاّ ضاحكاً مسروراً يقول تارة سأرتاح من اجرة الدار واسكن منزلاً عالياً واركب عربة خاصة وارتقي بمعونة الباشا واخلص من همّ صرف الراتب على تدبير المنزل واقتصد راتبي واوفي ديني فاكون حينئذٍ سعيداً ثم اخذ يفكر فيما يفعل بالذي سيتراكم من مشاهراته فقرر ان يشتري اوراق يانصيب المصرف العقاري وتحويلات سكة حديد الروملي واصبح في

امان من كسب اعظم المبالغ ورأى ان يشتري خيلاً ليقيم على تربيتها فيبيعها بما تيسر من الليرات ويشتري دكاناً ثم مخزناً ثم ضيعة فيصير من الاغنياء ويستغني عن الاستخدام وعن معاناة شرور العالم ويكتفي بان يصير عضواً في احد المجالس وطوراً يقول ان هذه السعادة ليست شيئاً في الحقيقة بجانب اقتراني بجميلة لان السعادة العظمى هي اقتران زوجة بزوج يوافقها في الخلق والخلق ويقوم بما يفرض عليه لتقوم هي بما يفرض عليها من اعمال الحياة وبمثل هذه الخيالات كانت تمر ايامه ولياليه فصار لا يفكر الاَّ في السعادة وينسى كل ما عاناه من قبل بل وتناسى ما وقع لهُ شأن الانسان يتذكر السعادة في الشقاء وينسى الشقاء في الاقبال وكان يرقب وصول ذلك اليوم السعيد الذي سيعقد به له على حبيبته جميلة .

ولما مضى اليومان اجابت بالقبول وفوّضت الامر لابيها ففرح هذا وارسل يستدعي سعيداً فأتى هذا مسرعاً لانهُ كان عالماً بالامر فقطع الطرق وما شعر الاَّ وهو امام المنزل وكان من عادته ان يأتي ماشياً على رجليه فأتى هذه المرة في العربة واستأذن عليه فدخل الى ردهة الباشا فقبل يده وجلس امامه فقال له الباشا يابني انت تعلم اني ربيتك كولد لي واحببتك بمثابة ابنتي جميلة والآن اريد ان اجعلك ابناً حقيقياً وافرح بك فهلا تطيع امري ؟

— سيدي العبد غرس نعمائك وان كنت عشت او اصبح لي شأن فذلك بفضلك واحسانك فمقامك اعظم من مقام ابي عندي ان كان ابي الذي توفي والدي بالجسم فانت ابي بالفكر ابي بالعلم ابي بالادب ابي بالسعادة ابي بكل شيء قال الله تعالى (ولئن شكرتم لازيدنكم) والعبد يقرّ ويعترف بانهُ ليس في وسعهِ شكر النعم الجسام التي اولانيها مولاي فليس لي الاَّ ان اطيعهُ في كل ما يصدر من سعادتك فمرْ بما تريد وانا عبدك المطيع .

— بارك الله بكرم اخلاقك ووفقك وجعلك من اسعد الناس واعلم يابني اني على غاية من الاسف لما عانيته من العذاب في زواجك وانا ربيتك حتى بلغت ما بلغت مما افرّ عيني به كلما نظرت اليك وسمعت عنك فاحب ان اصل ما بدأتهُ معك لترحم عليَّ بعد موتي وتكون ولياً على عائلتي التي ستصبح بعدي بدون رجل يتولى شؤونها وهذا لا يتم الاَّ بزواجك من ابنتي جميلة فاعرضها عليك اذا لم يكن لك مانع

— لا مانع لي يمنعني عن نيل النعم فالعبد رهين الامر في كل حين فمرْ بما تريد فلا تجدني الاَّ عبداً مطيعاً

— حفظك الله وسنعقد لك عليها هذا الاسبوع ان شاء الله السميع العليم

— اطال الله عمر مولاي

ثم شكر فضله وقبل يده وذهب ودخل الباشا واطلع امرأته على ما دار بينه وبين سعيد

وهذه اخبرته جميلة فسرت وايقنت بنيل المراد . وبعد اربعة ايام جاء عمال الولاية والد سراء والوجهاء والعلماء الى دار الباشا المشار اليه ووكل سعيد احد اصحاب الباشا فعقد العقد وعين العرس بعد شهر من تاريخ العقد .

***

غدا سعيد يرقب يوم العرس بفروغ صبر ولما آن الوقت استعد للسرور فدعا رفقاءه ليشاركوه بفرحه وحبوره وما علم بما اخفاه له الدهر الخؤون وقد نامت عينه عنه الى حين فادخله الباشا تلك الليلة على جميلة واوصاها بعضها ببعض ودعا لهما بالتوفيق .

فلما دخل بها وخلت به اخذت تعاتبه قائلة : لو كنت خالياً من اوهامك الغريبة وحفظت العهد لنلت ما نلته الآن وما كنت وقعت فيما وقعت ولكن خلق الانسان عجولاً على اني ما زلت اعجب منكم معشر الشرقيين شهما كبر عقلكم وارتقى فكركم ودرستم العلوم والفنون لا تزالون مقيدين بالاوهام الباطلة ولقد ترى الواحد منكم ينتقد الخرافات ويعيب اوهام غيره ويرتكبها غير مختار وذلك بما تعلمه من امه الجاهلة في طفوليته يرضع لبان الخرافات مع لبن أمه ولا يخطر ببالك أيها الحبيب اني اقصد بانتقادي هذا مدح الجنس اللطيف فانا عالمة ان وجود فتاة مرتقية الفكر سليمة العقل خالصة من الاوهام والخرافات في بلادنا قد اصبح ضرباً من المحال وذلك ان المدارس التي أسست لتثقيف عقول البنات لا تعلمهن الا مبادىء العلوم والفنون ضعيفة ضئيلة لا تكاد تسد الحاجة وقد لا توجد مهذبات مدربات في المدارس يهذبن الفتيات ويدربنهن على الفضائل وحب الكمال الا ما ندر ومما يؤسفني ان ارى ان اهم درس يدرس في المدارس تعليم امة من اللغات لاننا لا نزال نعد التكلم او العلم باحدى اللغات دليلاً على الفضل والكمال واغرب من هذا كله ما نراه من انهماك المعلمات في تعليم البنات التفصيل على الزي « المودة » وزركشة القساطين فالمعلمات يغرسن حب الازياء في عقول النساء وهن غير مباليات بتثقيف عقول الفتيات ولذلك نرى الفتاة تخرج من المدرسة على آخر طرز واحسن زي من الزينة والتبرج وقد تتكلم بلغة من اللغات فتكون حينئذ بلغت منتهى العلوم والآداب بزعمها وزعم اهلها . ولا يخفى عليك ان التي دأبها التزين واللباس وتجديد الازياء لا تجد في وقتها متسعاً لتعليم ابنها وتهذيبه ولذلك اصبحت المرأة علتنا الاجتماعية ومقياسنا متى ارتقت ارتقينا واذا هوت هوينا معها فلا نقوم لنا قائمة الا بتهذيب المرأة التي اذا هزت بيدها اليمنى سرير ابنها هزت باليسرى الدنيا بأسرها والرجل العظيم لا يأتي الا من عظيمة سبقته وهي أمه ولله در من قال (الطفل صحيفة بيضاء وامه تنقشها كما تشاء) ولعلنا نرى يوماً يكثر به نصراء المرأة الضعيفة فيعلمون حقائق الامور

ويعنون بتهذيب بناتهم ويخدمون بذلك بني نوعهم . واما نحن فاننا نربي ابناءنا كما نشاء ونجعلهم مثال الكمال ونثقف عقولهم ونعدهم للهيئة الاجتماعية خدمة يقومون بواجباتهم نحو بني الانسان والحيوان .

= لقد اعجبني خطابك البديع الذي اعرب عما في ضميري ولكن مالي اراك مرتدية على آخر زي ؟ اما كان اللائق بك ان تبتدئي بنفسك وتهجري الازياء وتنزعي عنك هذه المجوهرات الثقيلة التي استغرب كيف تطيقين حملها على انه كان يكفيك رداء جميل قليل الزركشة في شكل بسيط حسن يقبله الذوق السليم .

= كان يجب عليَّ ان ابتدأ بنفسي ولكني خفت من ان توجه سهام اللوم نحوي واصير عرضة لافواه الناس وربما جلب ذلك على والدي كلام المتكلمين فحطوا من قدره

= اليس من العقل ان لا تبالي بكلام الجاهلات اللواتي لا يميزن بين الحسن والقبيح وانت لست من اللواتي يتزين ليلة العرس ليغرن ازواجهن حتى يتملكن قلوبهم فانت ملكت فؤادي منذ كنت طفلاً ومكانك لا يزيده لباسك وتبرجك شيئاً في عيني ولا تنقصه بساطة ردائك ويا ليتك كنت جعلت البساطة زيًا بين الناس لانه ينظر اليك والنساء يقلدنك ولكن كما قلت ان الانسان مهما ارتقى لا يزال مقيدًا بقيود الاوهام . واما عدم تصبري وخيانتي لعهدك فهذا امر مقدر والمقدر محتوم والاشياء مرهونة باوقاتها ولا يستطيع بشرٌ ان يفر من القدر ولذلك لا ارى محلاً للوم

= ان هذه العبارات عبارات العجزة الذين اذا اخطأوا واساءوا رجعوا بخطأهم على القدر وشكوا من الدهر واذا احسنوا منوا وافتخروا .

= دعينا من الفلسفة والكلام فلنطرب بالحان المغنيات ونترنم بآلات الطرب لان هذه الساعة ساعة طرب وهي الليلة الوحيدة التي لا تتكرر في حياتنا والايام بيننا سنتجاذب اطراف الحديث ونبتدع بعضنا بعضاً من الحكم والحقائق ما نشاء

وثاني يوم العرس عهد الباشا الى سعيد بان يتصرف بمنزله كما يشاء ووكل اليه اشغاله الخاصة وصار يتصرف بالصدق والاستقامة وانفصد كثيرًا من النفقات وغدا هو المرجع ومن كان له حاجة عند الباشا كان يأتيه فيلتمسها منه وهو يحسن معاملة الناس حتى استجلب قلوبهم وكان يساعد المغدور ويسعى في استحصال حق المظلوم من الظالم . وتكلم مع الباشا على ان يسعى في ترقية وظيفته فوعده بذلك ففرح وقوي امله بالسعادة وصار يوفر رواتبه ويوفي ديونه حتى اشترى سندات البنك العقاري وتحويلات سكة حديد الروم ايلي واشترى حصانين لبر بيهما واخذ خياله يتسع وآماله تكبر فنسي شقاءه فهو يأكل ويشرب وينام ولا يدفع بارة وينتزه بعربة الباشا ولا يصرف الا القليل فتخلص من الطلب ومن الدين